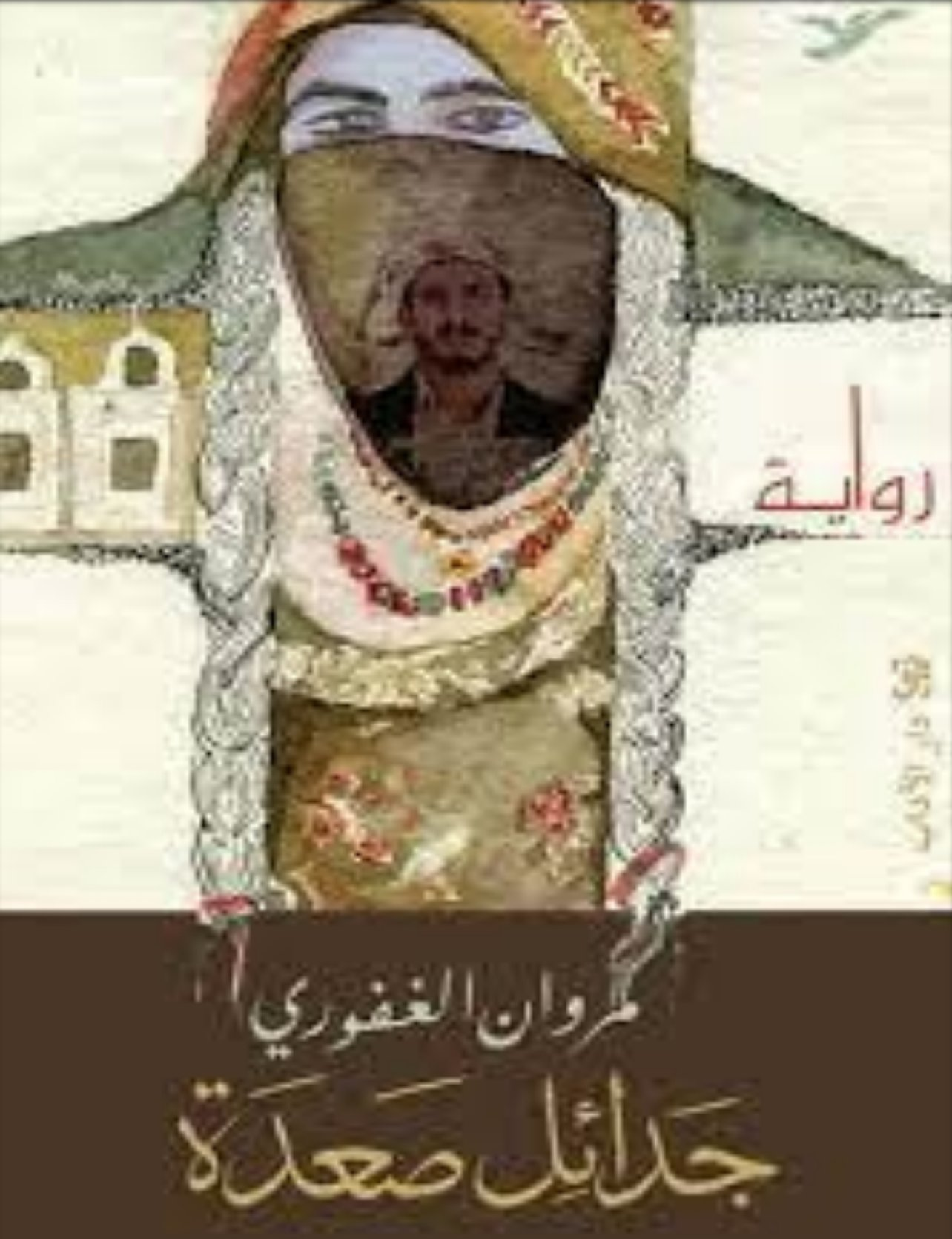
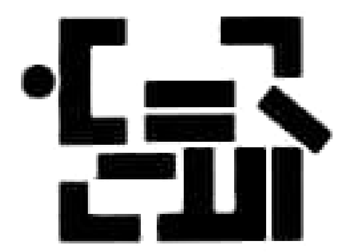

رواية
مروان الغفوري
جدائل صعدة

مروان الغفوري

جدائل صعدة

رواية



دار الآداب - بيروت

«يا سيّدة الجبل الجبّار،

أنت الرافعة أعلامك الخضراء بين هذه الصخور الدكناء

يا أخت القمرين

حدّثيني، وعلّميني،

وارفعي بي إلى علياء إيمانك،

فقد جئت مستمدًّا من ينبوعك العالي

القوّة والحكمة»

أمين الريحاني

(ت ١٩٤٠)

«جرت العادة هذه الأيّام أن يدّعي المرء في مقدّمة كلّ قصّة أنّها قصّة حقيقيّة. ومع ذلك فإنّ القصّة التي أرويها هنا حقيقيّة فعلاً»

بورخيس

(كتاب الرمل)

إلى هيلين

«عزيزي الكاتب مروان الغفوري،

أنا فتاة من محافظة صعدة. اسمي إيمان، وهذا مجرّد اسم مستعار. لديّ قصّة. في الحقيقة أنا قصّة. إذا وجدت في نفسك الرغبة لسماعها أبلغني. لا أدري كيف سأسردها عليك، ولا كيف سترويها لقرّائك. أشعر برغبة في الموت، وأخشى على قصّتي أن تموت مثلي، أو معي. لا أدّعي أنّك ستجد في قصّتي العبرة، بل الألم! فكّرت طويلاً: هل على المقهور أن يمضي ما تبقّى من عمره في انتظار لحظة الانتقام، أو ما يسمّونها لحظة النصر؟ ماذا يعني أن تنتصر أخيرًا بعد هزيمة كبيرة أدّت إلى انهيارك بالكامل ـــ أعني انهيارك من الداخل؟

عن نفسي قرّرت أن أنتصر بطريقة مختلفة: سأحدّث العالم عن هزيمتي، سأقصّ بالتفصيل ملامح أعدائي المنتصرين، سأكتفي بذلك، وسأشعر بالنصر. عليّ أن أشعر بالنصر لأنّهم سيشعرون بالهزيمة، أو بالخزي. إذا سألتني عن أعدائي الذين سأهزمهم، فأنا لا أعرفهم. هم أيضًا لا يعرفونني. غير أنّ الحكاية قسّمتنا إلى مهزومين ومنتصرين. أنا لا أريد إعادة عقارب الزمن إلى الوراء ولا إلى الأمام، ولست متأكّدة ما إذا كانت هذه الحكاية ستبدّل الأدوار بين المنتصر والمهزوم، ولا ما إذا كنتُ بالفعل بحاجة إلى سردها عليك وعلى قرّائك.. البارحة قبل الفجر على سطح المنزل كان جوّ صنعاء نقيًّا على غير عادته. هدأت كلّ الأصوات إلاّ صوت كلب الحيّ. استطعت التقاط صوتِه من بعيد، صوته القادم من منشأ الكون. قدم مع موجات من الضوء القديم، كأنّه كان يقول لي: ليس بعدُ يا إيمان، اروي حكايتك للناس.

اخترت الكتابة إليك أنت بعد أن قرأت روايتك «الخزرجي». كان المجذوب يتوسّل إلى بطل روايتك، الذي لم تمنحه اسمًا طيلة الرواية:

«أرجوك اكتب عنّي، لا تدعني أمت في الجبال وحيدًا. حدّث الناس عنّي».

لن أتوسّل إليك كما فعل المجذوب معك، أو مع بطل روايتك. أنا فقط أقول لك إنّ فتاة اسمها إيمان عاشت في جبل في صعدة لديها قصّة لا ينبغي أن تموت، أو من الأفضل ألاّ تموت.»

إيمان

صنعاء / ٤

فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

لن أقول لكِ: احكي، كلّي آذان مصغية. فقط احكي. ربّما بمقدورك تخيّل هذه الحقيقة: كلّ امرأة في اليمن تنام على بحيرة من القصص. قبل عشرة أعوام من الآن كتبتُ: قديمًا كان يُقال «في اليمن تجد تحت كلّ حجر شاعرًا». في الزمن الذي نعيشه صار يُقال: في اليمن تجد فوق كلّ شاعرٍ حجرًا. لديّ ثقة في أنّ القصّة ـــ التي هي أنت ـــ هي ذلك اللون من القصص التي تنتهي بدراما تحني المرء ولا تكسره. أستغرب إشارتك إلى الرغبة في الموت. الذي يروي حكايته للناس لا يفكّر بالموت يا إيمان، بل بالخلود.

أنت من صعدة؟ حسنًا، هذا أمر مثير. ضحيّة تريد أن تنتصر على خصم مهزوم. عندما كانت اليمن «صعدة كبيرة» أسماها الزبيري: بلاد واق الواق. في زمن واق الواق كان اليمن مرتّبًا على طبقات: كلّ طبقة ضحيّة للطبقة التي تقف مباشرة فوقها. كان الناس، كالعادة، ضحايا الضحايا. لا يمكنك العثور على منتصر مطلق، سوى الماضي. ماذا لو قرأ الناس حكايتك وانتصرتِ؟ هل فكّرت جيّدًا بأولئك الذين ستهزمينهم؟ ماذا لو شعروا بالحزن العميق ودخلوا في نوبة من النحيب والخجل، هل سيتطهّرون من خطيئتهم؟ عندما تنظرين إلى الخلف فترين سكّان الجبل يشعرون بالعار أو الهزيمة، هل سيُدخل ذلك المنظر السرور على قلبك؟

حسنًا يا ابنة صعدة..

ها هي صعدة تزحف من جديد، بكلّ قصصها، على اليمن. على مرّ التاريخ كانت صعدة تأتي من الماضي، وكانت تنتصر. ليس لقوّة الحقائق التي تجرّها خلفها، بل لأمر آخر. الماضي ليس لديه ما يخسره، لذلك ينتصر على الدوام، أو يختفي فجأة.

احكي قصّتك، يا إيمان. نحن لا نروي قصصنا لنهزم الأعداء، بل لأنّنا لا نريد أن نموت. خصوصًا نحن، يا إيمان. نحن الذين فوق كلّ منّا حجر، وتحت كلّ منّا ضحيّة، بدرجة أو أخرى!

عزيزي الكاتب،

أنا في الخامسة والعشرين من عمري. أرجو أن لا تتدخّل في تعديل النصّ الذي سأكتبه. اتّفقنا؟ ستنشره على ما هو عليه؟ أو دعني أسرد حكايتي. عند فراغي منها سنراجعها معًا. حسنًا.. ما معنى كلمة معًا؟

الساعة الآن الثامنة مساء، المكان: صنعاء، شارع الجامعة. أسكن، منذ خمسة أعوام، هنا. أمامي شمعة بيضاء، صناعة صينيّة. النور مقطوع منذ حوالى عشر ساعات. ليس لديّ ما يكفي من الشموع. بلى، لديّ ما يكفي من حيث العدد، لكنّها تذوب بسرعة مذهلة. لا تشتروا البضاعة الصينيّة لأنّها ستخذلكم في أسوأ الأوقات. هذه العبارة ستصبح مع الأيّام حقيقة علميّة.

لا ندري من يقطع النور عن صنعاء. هذا الأمر ليس جزءًا من القصّة التي أرويها لك. لكن فيما لو كُتبت لهذه القصّة الحياة لعشرات السنين، أو أكثر، فسيكون من الجيّد أن أُخبر الناس الذين سيقرأونها بعد مائة عام من الآن أنّني أكتبها في العام ٢٠١٤، بعد ثلاثة أعوام من الثورة. يقول الناس في هذه الأيّام إنّها لم تكن ثورة حقيقيّة. عندما يموت هؤلاء الناس سيأتي آخرون يقولون إنّها لم تكن ثورة وحسب، بل كانت دراما تاريخيّة ساحرة. سيتمنّون لو أنّهم عاشوا في زماننا هذا، الذي لا نكنّ له سوى النزر اليسير من الودّ. المرأة العجوز التي أسكن عندها نادرًا ما تكترث لانقطاع النور، ولا تتمنّى لو أنّها عاشت في زمن آخر. أحيانًا تلقي ببعض الجمل الساخرة. في الغالب تعتقد العجوز الطيّبة أنّ عمل أهل المدينة السيّئ يجرّ عليهم الشدائد. سمعتها أكثر من مرّة تقول: إنّي لأعرف رضا الله عنّي من خلق دابّتي. لا تتحمّس للنقاش حول أيّ أمر، سوى ما نعتقد نحنُ أنّه من التوافه.

سألتها مرّة:

ـــ لكن، يا جدّتي هناك فاعل!

ـــ أدري. الله يرسل الفاعل.

ـــ الله لا يأمر بالشرّ، يا جدّة!

ــــ ليس الشرّ، يا ابنتي.. ليس الشرّ.

شردت قليلاً. أمسكت بحافّة الكرسي، ووقفتْ. كانت تمشي ببطء شديد. أستطيع رؤية الألم على ملامح وجهها. اتّجهتْ إلى غرفتها محنيّة الظهر.

ــــ بل العذاب.

ــــ ...

قبل خمسة أعوام من الآن جئتُ إلى هذا المنزل. جاءت الثورة، وغاب النور. سمعت الجدّة قبل فترة قريبة تقول هذه الجملة. ضحكت. كنت بحاجة للضحك. أزور صديقاتي وأسمع من الأمّهات والجدّات. أحبّ الحكايات مثلك. ربّما كان عليّ أن أكتب هذه القصّة بنفسي. سأرى مع مرور الوقت ما إذا كنت رويتها كما يجب، ثم سأقرّر. تقول الجدّات إنّ النور غاب مع الثورة. تقول الشابّات إنّ البنزين أيضًا غاب. يقول الآباء: اختفت الكثير من البضائع الرخيصة والضروريّة. لا يتحدّثون عن غياب الحاكم، ولا يتذكّرونه. يريدون فقط عودة الأشياء المختفية، ويتذكّرونها. في قبيلتي، في قريتي، غالبًا ما يربط الناس إيمانهم بالإله بعطاياه. يتخيّلون الجنّة على شكل قصر مليء بالنساء والعسل. كنتُ أقرأ الكتب الدينيّة، وأحضر الدروس في المسجد على نحو منتظم. لطالما قيل لي إنّ الله يتجلّى لأهل الجنّة، لكن أهل الجنّة في قريتي لم يكونوا يكترثون لهذا الأمر. فأنا لم أرهم قطّ يتحضّرون لذلك اللقاء. لم أر ذلك الارتباك في كلماتهم كما يحدث عندما يكون المرء على موعد مع شخص مهمّ. فهم لا يريدون منه سوى أمر واحد: أن يفتح لهم أبوابها، ويتركهم وشأنهم. قال النبي إنّه سيكون هناك. لم أسمع أحدًا، حتى هنا في صنعاء، قال إنّه سيبحث عن مكان النبي في الجنّة. في الغالب أعني النساء، ولا أظنّ سوى أنّ الرجال كذلك. فأنا لم يتح لي الجلوس إلى الرجال والاقتراب من عالمهم حتى عندما كنت طفلة. سألت والدة صديقتي زينب، وهذا اسم مستعار، عن الجنّة: ماذا تريدين من الجنّة. ارتبكت. اكتشفت لأوّل مرّة خطورة سؤالي. قالت كلامًا مرتبكًا بلا معنى واضح. هزّت رأسها بعد ذلك،

وضربتني على كتفي:

ـــ أبو العيال يساوي الجنّة وما فيها.

صدمتني إجابتها. اكتشفت أنّي أيضًا لا أملك إجابة عن سؤالي. ماذا أريد في الجنّة؟ لا تملك أيّ من صديقاتي إجابة عن السؤال بأفضل من إجابة أمّ زينب. في اليوم التالي، ونحن ذاهبات للتسوّق، قالت لي زينب وهي تبتسم:

ـــ في الجنّة سأنتظر ابن الحلال، ثم سيقرّر هو ما الذي نريده.

حسنًا أنت لا تعرفني، لا يعرفني أحد. الذين عرفوني في صعدة لا بدّ أنّهم نسوني. كانوا يحاولون نسياني وأنا أصرخ في وضح النهار. عندما كنت أغرق في الألم والحزن كانوا يشعرون بحلاوة إيمانِهم.

أنا أبالغ إلى حدّ بعيد عندما أقول: الذين عرفوني في صعدة. المرأة في بلدتي لا يعرفها أحد.

انس هذا الأمر حاليًّا. فيما بعد، حتى عندما يعود النور إلى غرفتي، سأكتب تحت ضوء الشمع.

هذا الصباح كنت مستلقية على الكنبة في صالون المنزل، هنا في صنعاء. تذكّرت آخر شمس غربت في صعدة. كان الزمن قبل أذان المغرب بدقائق، وكانت الشمس تغرق هذه المرّة. خُيّل إليّ، لوهلة، أنّها لن تعود.

عندما وقعتُ في غرامِك قبل عامٍ من الآن، ولم يكن اسمي إيمان آنذاك، قلتَ لي:

يا شمس الله.

لا أتذكّر ما إذا كنت كتبتَ جملة أخرى بعدها.

كانت شمس صعدة الأخيرة تذوب، بينما تصعد سيّارتنا الجبل في الطريق إلى صنعاء. همس شقيقي في أذني: «آمنتُ بك يا إيمان».

لم يكن اسمي إيمان في الساعة تلك.

وكان الرجل الوحيد الذي آمن بحزني وهزيمتي. كنّا أربعة في سيّارة قديمة تسع أكثر من عشرة ركّاب. إلى

جوار السائق كان يجلس شقيق شيخ القبيلة.

قلت للجدّة:

هل تعرفين مدينة غابت عنها الشمس إلى الأبد؟

ابتسمت.

واصلت التسبيح:

سبحان الله وبحمده.

سألتها: كيف تعود الشمس إلى الشروق مرّة أخرى بعد غروبها؟

توقّفت عن التسبيح. تأمّلتني، كأنّها تكتشفني للمرّة الأولى.

ـــ قُدرتُه يا ابنتي، قدرتُه.

سبحان الله وبحمده، سبحان الله وبحمده، سب..

أنا مضطرّة للتوقّف هنا. سأعتني بالجدّة وضيوفها. المسكينة أصيبت منذ ثلاثة أشهر بكسر في الفخذ الأيمن، أو في الحوض من الناحية اليمنى. أصيبت بكسر وهي تتوضّأ للفجر. انزلقت في الظلام، لكنّها لم تلعن أحدًا. الرجال الذين قطعوا النور عن المدينة ذلك اليوم لم يأتوا لزيارتها بعد ذلك. لا بدّ وأنّهم قطعوا النور بعد فراغهم من صلاة الفجر. هذه المدينة غريبة الأطوار، على الأقلّ بالنسبة لامرأة شريدة مثلي. يخيّل لي أنّي أعيش في مسرح للصلاة والأذان، فلا يوجد نشاط آخر يوازي ذلك المتعلّق بالعبادة. مع بداية كلّ عام أحسّ بأنّ عدد المساجد زاد قليلاً، وكذلك الذين يذهبون للصلاة. لكنّ الفضائل تنخفض والطيّبون يختفون من الشوارع.

عندما كانت الجدّة تنام في الجبس فكّرت في الكتابة إليك مرّة أخرى. لكنّي لم أفعل. لو كنتُ أكثر شجاعة، لو لم أكن شريدة في الأساس، أو لو أنّي لم أكن المرأة التي أخرجوها من البلدة بسبب الخطيئة، لو.. لصارحت أهل صنعاء. لصرخت فيهم من أعلى تلّ مطلّ على المدينة:

«يا من تقدّمون رشوة للإله ثم تفعلون بعد ذلك ما يحلو لكم، لا ما يحلو له.. توقّفوا عن الصلاة، أوقفوا هذه

الحيلة المزرية».

قبل خمسة أعوام، في صعدة، داهمني الإحساس نفسه. ربّما قبل ذلك بكثير. إنّهم لا يتوقّفون عن تقديم الرشا للإله. كان بطني يكبر ببطء، وكنتُ لا أزال أصلّي كما تفعل فتيات القبيلة كلّها. كان الرجال يقدّمون الطاعة لرجال آخرين، والنساء يعملن جواري لدى الرجال الضعفاء، ولدى نساء الرجال الأقوياء. لكي لا نفكّر بالأمر، فما من سبيل لتغييره، كنّا نتّفق على أنّنا إنّما نفعل ذلك لأجل الله. فالإله العظيم سيرضى عن الضعفاء الذين يستجيبون طواعية لإرادته وتدبيره.

قالت لي أمّي ذات يوم:

«الله قسّم الأرزاق والأحساب. خلق الفقراء لخدمة الذين اصطفاهم. سيشفعون لهم يوم القيامة يا ابنتي».

أمسكت بكفّها. كانت عيناي تبتسمان لها. قلت لها إنّ ذلك لا يمكن أن يكون عدلاً، ولا حقيقة. وضعتْ يدها على كفّي. نهرتني بهدوء:

«بلى، يا زينب. الله عادل. يوم القيامة سيكونون سواسية».

قلت لها:

«يقولون غير ذلك، يا أمّي. يتحدّثون عن آخرين سيكون سادة شباب الجنّة».

سرعان ما وضعت كفّها على فمي: ششششش. حذاري يا إيمان!

إيمان

٥ / فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

دعيني ألخّص ما فهمته من رسالتك الأخيرة. فتاة من صعدة، تركت البلدة بسبب خطيئتها، تسكن لدى امرأة عجوز في صنعاء منذ بضعة أعوام. هذه المرأة مثقّفة، ومدركة. أو هي الآن على ما هي عليه. ربّما لم تكن كذلك من قبل.

لستُ في عجلة من أمري، ولا أنتِ. اسردي قصّتك، يا إيمان، بالتقطير.

قبل عام من الآن، في صباح رمضان، كنتُ أتعرّف على شوارع صنعاء بسيّارة صديقي. لم يكن ثمّة سوانا: أنا على الأرض، والطائرة الأميركيّة، من دون طيّار، في الجوّ. لدى هذا اللون من الطائرات عدسات مذهلة باستطاعتها مراقبة المارّة في الشوارع. كأنّنا نعيش في عالم من الفنتازيا يا إيمان. جول فيرن، الروائي الفرنسي شديد الحدس تخيّل في القرن التاسع العشر أبراج باريس السكنيّة، الطائرات، وحتى المصاعد. في العام ١٩٠٥ مات فيرن. في العام نفسه مات الإمام محمّد عبده. بعد موت فيرن ظهرت الطائرات والمصاعد، ومات الإمام محمّد عبده إلى الأبد. لم يعش محمّد عبده بعد موته، كما يفعل فيرن الآن. لو أنّه وصف الجنّة بحسبانها غابة من النساء وأنهار الحليب لعاش طويلاً. دلّ الرجلان على الطريق، فعاش أحدهما ودفن الآخر.

كانت الطائرة تحوم. كنتُ أراها. في الحقيقة كانت تراني. أنا رجل جبان، يخاف ركوب الطائرة، ويرهبه منظرها. أحسست بتواشج غريب مع ذلك الكائن الأجنبي. بدا لي أنّه يبادلني العاطفة نفسها. صعدت بالسيّارة إلى القمم العالية حول صنعاء. كانت الطائرة على الضفّة الأخرى، أو بالقرب منّي. لا يوجد سبب سيدفعها لإطلاق النار عليّ. لو أنّها فعلت لشعر قائدها الجالس في لاس فيغاس بالملل، وربّما غلبه النعاس. فلم يكن في صنعاء من شيء يتحرّك في تلك الساعة سواي.

فتحت باب السيّارة، تركت الراديو يعمل. ما إن ظهر القرص العلوي من الشمس خلف جبل نقم حتى اختفت

الطائرة.

في تلك الساعة كتبتُ لامرأة لا أعرفها:

يا شمس الله.

ثم ألقيت بجسدي خلف مقود السيّارة، فنزلت بين عينيَّ سحابة من النعاس.

في أحلامي كنتُ أجلس على تلّة صغيرة، مع طائرة بلا طيّار. حدّثتني عن الخوف وحدّثتها عن الجوع. قالت لي إنّ عينيّ خضراوان. قلتُ لها: عيناك عسليّتان. سألتني: هل تتمنّى الموت لأميركا؟ لم أجبها. فركتُ خصلاتها، ضفرتها. وضعتُ رأسها على صدري. مرّرتُ سبّابتي على شفتيها، فطارت. تابعتها بعينيَّ. كان مشهدًا صامتًا في الغالب. سمعت صوتها من بعيد. كأنّها كانت تقول لي: أنت صائم.

وقفتُ. وضعت كفّيَّ في جيبيْ بنطالي. حلّقتْ فوق رأسي قليلاً. بدت عيناها خضراوين. تلاشت في الجوّ، ولم تترك أثرًا. فتحتُ عينيَّ على صوت غليظ، وضربات على نوافذ السيّارة.

ـــ هل لديك تصريح لاستخدام الزجاج العاكس؟

فركت عينيَّ. أين الطائرة الأميركيّة؟ طالعتُ وجهي في مرآة السيّارة الداخليّة. كانت عيناي بنيّتي اللون.

ضربت على مقود السيّارة بكفّي اليمنى:

ـــ شيت! الموت لأميركا.

ابتسم الرجلان المسلّحان، وغادرا المكان.

م. غ

عزيزي الكاتب،

توقّفت ليومين عن مراسلتك. راجعتُ ما كتبته حتى الآن. قلتُ لك في البداية إنّي سأهزم الأعداء بقصّتي. خرجت هذا الصباح لوحدي. مشيت طويلاً في صنعاء. رأيت الأعداء في كلّ مكان. كان حسن هنا قبل أعوام. قال إنّه يشتري الجرائد ليفهم كيف يفكّر الأعداء. سأخبرك عن حسن فيما بعد. باعوني البسكويت في الصباح، والخبز منتصف النهار. ابتسموا لي، وكانوا مهذّبين وحريصين على كرامتي. وجدت نفسي فجأة بالقرب من ميدان التحرير. كانت الساعة 11 نهارًا. مررت بأقرب مخبز، ثم ركبت تاكسي. في المخبز اكتشفت أنّي تركت فلوسي في البيت. أصرّ العدوّ على أن آخذ الخبز.

ــ خذيه يا بنتي من غير فلوس.

ارتبكت. تأمّلت ملامحه في أجزاء من الثانية. كان بالفعل واحدًا من الأعداء الذين تركتهم في صعدة والذين يتكدّسون في خيالي ويتقاطرون في نومي مثل خيول البادية.

وجدت نفسي تائهة، كأنّي أمشي على سيل. رفعت عباءتي قليلاً حتى أتمكّن من نزل الدرَج. سمعت العدوّ خلفي: خطوة خطوة يا بنتي.

التفتُّ بصورة تلقائيّة فرأيت ظهره، ظهره فقط. لم يكن يتأمّلني حتى!

أوقفت سيّارة تاكسي. مرّت السيّارة بالشوارع والحارات حتى توقّفت أمام الدار. لم يتأمّلني السائق عبر المرآة الداخليّة ولم يحاول أن يثرثر معي حول أيّ موضوع.

طلبت منه الانتظار لدقائق ريثما أحضر له الأجرة من الدور الثالث. ابتسم الرجل بتهذيب شديد. وقعت عيناه على عينيّ، سرعان ما خفض بصره.

ــ الله معك يا بنتي. في حفظ الله.

انطلقت السيّارة في الشارع، انحنت يمينًا، وغابت. بقيت في مكاني لدقيقة على الأقلّ. ملامحه أمام عينيّ حتى الآن. إنّه واحد من الأعداء الذين غابت شمس الله عن

مدينتهم إلى الأبد. اتّجهتُ إلى باب العمارة. سمعت صوتًا من خلفي. كان الشابّ المهذّب ضيف الله، الذي يعمل في الدكّان المقابل للعمارة، يقترب منّي مرتبكًا. للأسف لن أحدّثك الكثير عنه فيما بعد، أو ربّما سأخفيه من الرواية لأسبابي الخاصّة.

ـــ هل نسيتِ شيئًا في التاكسي؟

ـــ لا، أبدًا.

ـــ رأيتكِ واقفة في مكانك. دوّنت رقم سيّارته.

ـــ أشكرك. أنا.. أنا ممتنّة لجميلك. لا توجد مشكلة على الإطلاق.

ـــ ولا يهمّك يا أختي. أنا تحت الخدمة. كلّنا تحت الخدمة.

كان يتحدّث بلكنة الأعداء الذين تركتهم في صعدة.

صعدت العمارة حتى الدور الثالث. أغلقت باب غرفتي وبكيت.

سبق أن قلت لك إنّ الفضائل تذوي في صنعاء. أرجوك، امسح هذه الجملة من الرواية. لا بدّ أن أروي قصّتي بشكل مختلف. أنا حزينة يا مروان، وتائهة، ولم أعد أفهم شيئًا. وأنت أيضًا لا تساعدني.

إيمان

٨ / فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان.

عاد ألبرينغو إلى بلده المكسيك بعد رحلة طويلة. حدّثهم عن مغامراته فلم يصدّقه أحد. قال إنّه أبحر ١٣ ألف كيلومترًا عبر المحيط الأطلسي حتى جزيرة إيبون أتول. أكل الأسماك، وعاش على دم السلاحف. سيموت ألبرينغو لأنّهم لم يصدّقوه. سيهزمه النسيان بعد أن فشل الأطلسي في هزيمته. خرج إلى الشوارع يصرخ: أين دانيال ديفو، أين إدغار آلن بو. من سيروي قصّتي؟

عاش روبنسون كروزو مع دانيال ديفو إلى الأبد. ونام آرثر غوردون في صحبة إدغار آلن بو.

أنت امرأة خرجت من الأحراش ودخلت في الأحراش. حدّثيني عن رحلتك يا ألبرينغو، وسأصدّقك. كيف دخلتِ البحر المفتوح. كان ألبرينغو يقول للمارّة، وهو يفقد عقله شيئًا فشيئًا:

جئتُ من البحر المفتوح، جئتُ من طريق الحوت.

هناك من سينفعل عند قراءة هذه الصفحة. سيضرب بيده على حافّة طاولة العشاء ويصرخ:

كيف تحدّث فتاة من صعدة عن روبنسون كروزو؟ أيّ رواية مملّة تريد أن تكتب يا مروان؟

حسنًا، لا تلتفتي إليهم يا إيمان. حدّثيني أكثر، عن طريقك. إذا سألتِني عمّا الذي فعله روبنسون كروزو في البحر فأنا لا أعرف. لكن إذا لم تسأليني، عزيزتي، فهذا يعني أنّنا، أنتِ وأنا، نعرف.

هيّا..

حدّثيني عن الأحراش، عن الأعداء الذين قالوا لك «رافقتك السلامة» بمنتهى التهذيب والحنان، وهم يطردونك من الغابة. عن المؤمنين بالربّ، ذوي الملامح الخاشعة، وهم ينتظرون المكافأة لأنّهم أقرّوا له بوجوده. عن الجبل المفتوح. هل يمكنني القول إنّ ملامح قصّتك بدت في الوضوح؟

حسنًا،

سأجمع مراسلاتنا فور اكتمالها. سأطبعها على ورق أبيض وأخرج إلى شارع الزبيري في صنعاء حافي القدمين، أصرخ على طريقة ألبرينغو:

أين دانيال ديفو؟ من يروينا؟

أو سأترك لك هذه المهمّة.

كيف عاش ألبرينغو كلّ ذلك الوقت في مكان موحش اسمه الأطلسي؟ هل كان يبحث عن الربّ أم عن الجزيرة؟ هل وجد الله أم ضلّ طريقه؟

وإذا كان، كما يقول، قد اكتشف طريق الخلود فلماذا عاد عبر طريق الحوت؟

أنا أقصدُكِ أنتِ، يا إيمان، الآن. إذا كنت قد صعدتِ الجبل وهبطتِ المنحدرات والسهول حتى تصلي إلى صنعاء، إلى خلاصك المحتمل، فلماذا تريدين العودة مرّة أخرى عبر المنحدرات وقطع الغمام؟

م. غ

عزيزي الكاتب،

اتركني أتحدّث، أرجوك. أنت لن تفهم لماذا، أو ربّما تفهم فيما بعد.

في أكتوبر ٢٠٠٩ خرجت من المستشفى، بصنعاء. كنت نحيلة، نحيلة على نحو لا يصدّق. أقمت في المستشفى أسبوعين لا أتذكّر منهما شيئًا. عندما أرغب في استرجاع أحداث تلك الأزمة الخاصّة أذهب إلى زينب. تعيد عليّ زينب الحكاية من جديد. في كلّ مرّة تدسّ تفاصيل جديدة عن تجربتي في المستشفى. تعتقد صديقتي أنّ الدقّة ليست جزءًا من الموضوع. في السابق كانت زينب تسرد الحكاية في دقائق. مع مرور الوقت أصبحت بحاجة إلى ليلة كاملة. أمّا أنا فلا أجادلها، فهي تجعلها تجربة حيّة وجديدة كلّ يوم. أحيانًا، عندما ألقي بظهري على سريري، يداهمني إحساس طاغ أنّي عائدة للتوّ من المستشفى.

أيّتها الشرّيرة، يا زينب.

كانت زينب ممرّضتي في قسم الجراحة العامّة. أصدقك القول إنّي أنتظر دائمًا الطريقة التي ستنهي بها زينب الحكاية:

ـــ يا إلهي، لن أنسى منظر شقيقك وهو يمسك ذلك الشيء بين يديه، ويقبّله. ظننته أصيب بمسّ. كان ذلك الشيء ثقيلاً، وبشعًا. وضعه الطبيب على الطاولة، فاحتضنه حسن. اقترب منه كبير الممرّضين، وأخذ منه الشيء. كان حسن يصرخ، يضحك، ويبكي وسط ذهول من الجميع. صافح كلّ زوّار قسم الجراحة. غادر حسن القِسم واتّجه إلى المدخل الرئيسي للمستشفى. صافح الحرّاس، الزوّار، المرضى، وعمّال الكشك.

قال الحرّاس إنّهم رأوه واقفًا في وسط الشارع يصافح المارّين. كان يقف على طريقة والد العريس لدى استقبال المعازيم. ثم اختفى بعد ذلك حتى الليل.

ـــ «حيّاك الله، أنا شقيق إيمان» كان يصافح المارّة ويبتسِم.

مرّت شحّاذة منقّبة فصافحها، وأعطاها ورقة فئة

ألف ريال. قال لها إنّه شقيق إيمان. هزّت الشحّاذة رأسها وتمنّت لهما حياة سعيدة، وتركته إلى رجل آخر. انتظر فراغ الشحّاذة من الرجل الآخر فاتّجه إليه. سأله: هل قلتَ لها إنّ إيمان شقيقتي؟ تأخّر الرجل بضع خطوات. ثم واصل طريقه.

تتذكّر زينب تلك الساعات بشجن غريب، وبحماس. وعندما أسألها: كيف عرفت كلّ ذلك وأنتِ لم تغادري قسم الجراحة، كانت تقول «أخبرني الحرّاس».

أحيانًا لا تشير إلى الحرّاس. تقول رأيته من بلكونة المستشفى. في بعض الأحيان أطلب منها إعادة بعض التفاصيل فتقول إنّها لم تحدّثني قطّ عنها.

أحبّها كثيرًا. ستعرف فيما بعد لماذا. قال حسن إنّه لم يجرؤ على النظر إلى عينيها سوى مرّة واحدة. قالت زينب إنّها لم ترَ عينيّ حسن قطّ. «رأيته مرّات قليلة. في كلّ مرّة كنت أجد نفسي في فقّاعة من نور، فأفقد الرؤية». بعد فترة سيقول لي حسن «عاصمتك صنعاء، وعاصمتي زينب». لكنّه، كمعظم الذين عشقوا مدنهم، لم يجد الطريق إلى عاصمته.

اشترك حسن في حروب صعدة الشهيرة من الحرب الرابعة حتى السادسة. كان يكبرني بعامين. من المفترض أنّه الآن في السابعة والعشرين من عمره. أظنّه لا يزال يكبُر مثلي. في أحيان كثيرة أسمع ريحًا بدويّة قاسية في داخلي. خلفها يأتيني صوته. يقول إنّه لن يكبر وإنّي بعد زمن طويل سأصبح أقّه.

بعد انتهاء الحرب الرابعة عاد إلى القرية. قريتنا عبارة عن سلسلة بيوت مرصوصة على جبل من الأسفل إلى الأعلى. كأنّها مرسومة على ورقة. يمثّل الجبل الجدران الداخليّة لبيوتنا، ولا يوجد فناء خلفي. أمامنا حتى الأفق سهول مترامية، وتلال صغيرة ومتوسّطة، ثم ينسدّ الأفق بجبال عملاقة بعد ذلك. لا يملك السهول أحد ولا يجرؤ على الاقتراب منها. عندما تقف على سطح منزلنا في مواجهة الغروب سترى إلى اليمين منك جبل آل سالم، اليهود. في طفولتي كنت أقطع الطريق من منزلنا حتى آل سالم في ٤٠ دقيقة على الأقدام. عندما كبرت أصبح

الأمر يتطلّب ساعة وربّما أكثر. إذا تصوّرت القرية على شكل أسطر أفقيّة كلّ سطر يتشكّل من عدد من المنازل المتداخلة، وتفصله ممرّات ضيّقة عن السطر الذي أعلى منه والسطر الأسفل منه، فإنّ بيتنا سيقع في أعلى الصفحة. بطريقة غير مقصودة ربّما، مع مرور السنين، بنيت قريتنا على شكل هرم. منزلنا في الأعلى، ولا علاقة لهذا الشكل الجغرافي بالترتيب الاجتماعي. يوجد مسجد قديم في وسط القرية، مبنيٌّ على شكل دورين. الدور الأعلى للدراسة: القرآن والفقه. كنت مواظبة على حضور الدروس في طفولتي، تعلّمت القراءة ودرست الفقه. وبالرّغم من أنّي كنت أتفوّق على صديقاتي كلّ يوم، وكان المدرّس يلحظ ذلك بالتأكيد، إلاّ أنّ ذلك لم يشكّل فارقًا لديه. كنتُ أتوقّع كلّ صباح أن يخبرني والدي بما سمعه عن نباهتي. لكنّه لم يسمع شيئًا. فيما بعد، عندما أصبحت شابّة صالحة للزواج، وما إن بدا بطني يكبر قليلاً فإنّ الخبر سرعان ما وصل إلى سمع أبي. حدث ذلك عندما كنت ما بين التاسعة عشرة والعشرين من عمري. تقريبًا مع الحرب الأخيرة. الأخبار السيّئة سرعان ما تجد طريقها. الأخبار الجيّدة يتعاون الجميع على دفنها.

كنت قد توقّفت عن الذهاب إلى الدرس الديني منذ أن صرت في الرابعة عشرة. سمعت بعد ذلك أنّ المدرّس سافر إلى السعوديّة للعمل. بعد ثلاث سنوات بنى له منزلاً في آل سالم، في قرية اليهود. سمعت أبي يتحدّث عنه ونحن على طعام السحور بكلام قاس. قال إنّه تعلّم في السعوديّة أفكارًا حقيرة، وأنّ نفسيّته تغيّرت بعد ذلك. وأنّه نصح لهذا السبب، عبر وسطاء، أن يشتري له منزلاً في مكان ما خارج القرية، فسكن في قرية اليهود. أخبرني حسن بعد العمليّة الجراحيّة بوقت قصير أنّ المدرّس طُرد من القرية مع اليهود، وأنّ مجموعة من الشبّان دفعوا سيّارته إلى الوديان. قال إنّها ظلّت تهوي لحوالى نصف ساعة، وأنّ هذه الحادثة أثّرت في كلّ من سمعها. رأوا أنّ الأمر يشبه خروج روح الإنسان الكافر.

لكنّي لمحت في عينيْ حسن سخرية مُرّة وهو يروي القصّة.

بعد الحرب الرابعة، وكانت أوّل حرب اشترك فيها حسن، عاد إلى البيت. كان منتشيًا. يقول إنّه انتصر في كلّ المواجهات الجبليّة ضدّ الجيش العميل للأعداء الخارجيين. لم تكن سعادته نابعة من إحساسه بالنصر، كما كان يقول لنا، بل لأنّه في كلّ انتصاراته لم يقتل أحدًا، كما كنت أستنبط من ملامحه وعباراته.

كان في الـ ١٩ من عمره عندما خاض حربًا لأوّل مرّة.

بالإضافة إلى حسن لديّ أخت تصغرني بأربعة أعوام. هي متزوّجة الآن، ولديها طفل اسمُه حسن.

زارتني أختي قبل أشهر. تذكّرنا كلّ شيء. عندما عادت إلى صعدة استرجعت أحاديثنا. حياتنا، وحتى تاريخنا، ليست أكثر من نهر بسيط على هامش الحروب. زواجنا، احتفالاتنا، مآسينا، حتى ذكريات البلوغ كلّها مدوّنة بحسب سنوات الحرب.

قالت لي عجوز يهوديّة في آل سالم، عندما كنت في الرابعة عشرة تقريبًا، إنّ سكّان صعدة لم يزيدوا قطّ عن ثلاثمائة ألف. سألتُ شمعة، هذا اسمها، عن السبب فقالت لي «الحروب، يا ابنتي».

سألتها عن اليهود، لماذا لا يزيدون أيضًا. قالت لي إنّ البلدة لم تعُد آمنة.

ـــ «يرحلون إلى أماكن أخرى» قالت وهي تحاول السيطرة على اختناق مفاجئ في صوتها.

ـــ في صعدة أم خارج صعدة؟

ـــ أماكن أخرى يا ابنتي.

لم تشأ أن تتحدّث عن تلك الأماكن الأخرى. سألتها:

ـــ تؤمنين بالنبي محمّد؟

ـــ نعم، نؤمن بالنبي محمّد.

ـــ وأنّه مرسل من عند الله؟

ـــ نعم، مرسل من عند الله.

ـــ لماذا علّمونا غير ذلك؟

ــ ماذا علّموكم؟

ــ إنّكم لا تؤمنون بالنبي محمّد.

ــ بلى نؤمن. محمّد نبي القبائل. ونحن لنا أنبياؤنا. أمّا الله وهذه الوديان والهضاب فلنا كلّنا، لمحمّد ولموسى.

كنّا نزور شمعة بين الفينة والأخرى لنستمع إلى قصصها. لم نسألها قطّ عن اليهود والمسلمين قبل هذا اللقاء. هي أيضًا لم تكن متحفّظة ومتوجّسة منّا، نحن الأطفال، مثل هذه المرّة. كانت شمعة أحبّ العجائز إلى قلبي، وأطيبهنّ.

وصلتُ إلى منزلنا مع أذان الظهر. كانت أمّي في المطبخ. رأتني. كنت واقفة في باب المطبخ. نسيت أن ألقي عليها التحيّة كما أفعل في العادة.

ــ «أبوكِ لا يريدكِ أن تزوري شمعة بعد الآن». قالت وهي تحاول إخراج رغيف خبز من التنّور.

ــ لماذا؟

ــ اليهود لا يحبّوننا، يا إيمان! ونحن لا نثق في طبائعهم.

ــ ولكن لماذا الآن؟

استدارت نحوي. مسحت كفّيها على جانبيْ قميصها. أمسكتني من يدي وجرّتني خلفها إلى ديوان البيت.

ــ «تعالي معي» كانت تزمجر.

في هذا الوقت يكون أبي عادة خارج البيت، في الوادي أو في طريقه إلى المسجد. فتحتِ الباب وأشارت إلى كومة من الأوراق في ركن الديوان، حيث يجلس أبي. أمّي لا تجيد القراءة.

قالت لي بصرامة «اقرئي هذه الأوراق مع شقيقك حسن وتعرّفي على حقيقة اليهود». لم أكن قد رأيت تلك الأوراق من قبل. يبدو أنّها جديدة، وأيضًا نظيفة.

ــ لكنّهم يمنيّون مثلنا، ويؤمنون بمحمّد مثلنا، ويحبّون الأرض مثلنا.

ـــ الخبيثة قالت لكِ إنّهم يؤمنون بالنبي محمّد؟

ـــ نعم!

ـــ أنتِ سألتِها، أم قالت لكِ من تلقاء نفسها؟

ـــ سألتها.

اقتربت منّي. انحنت باتّجاهي ووضعت كفّيها على كتفيَّ.

ـــ لماذا سألتِها؟ ما الذي دفعكِ لفعل ذلك؟

ـــ لا أدري.

ـــ ها، وماذا قالت لكِ اليهوديّة؟

ـــ قالت لي إنّ محمّدًا نبيّ، لكنّه نبيُّ القبائل.

ـــ الملعونة. هل سمعتِ؟ نبيُّ القبائل؟

استوت واقفة مرّة أخرى. وضعت كفّها أسفل ظهرها كأنّها تحاول أن تفرد عمودها الفقري.

ـــ أستغفر الله العظيم! وأنت ماذا قلتِ لها؟ بماذا رددتِ عليها؟

ـــ صمتُّ. قالت لي إنّهم يعتقدون أنّ محمّدًا نبيٌّ. لماذا لا تريدين أن تفهمي كلامها.

ـــ أنا لا أريد أن أفهم كلامها يا قليلة التربية. تقول لك إنّه نبيُّ القبائل.

ـــ لكنّه نبيّ.

ـــ إيّاكِ أن يسمعك أبوكِ أو أحد من أهلك. سننسى الأمر. أنت لم تكوني اليوم في أيّ مكان. ولن تذهبي إلى آل سالم بعد الآن. فهمتِ؟ سمعتُ أنّ المدرّس سيسافر إلى السعوديّة، وربّما لن يجدوا له بديلاً في القرية. أمامك مكتبة جدّك ووالدك. بيتك قصرك. انظري، كتب في كلّ رفّ، انظري. ديوان كبير، أكبر من مدرسة المسجد. كتب وأوراق. وإلاّ.. تعالي معي إلى المطبخ. ما حاجتكِ للأوراق والكتب؟ المرأة خلقت لتخدم، لتربّي. الله لم يخلق المرأة للكتب.

صمتت هنيهة. أحسّت بقسوتها.

فكّت دبوس حجابي، وأخذت الحجاب. انسدل شعري بين كتفيَّ. حاولتْ أن تعود إلى لطفها الدائم معي:

ــ انظري إلى شَعرك يا إيمان. يكبر كلّ يوم. ما شاء الله! عندما تصبحين شابّة صالحة للزواج سيكون شعرك قد بلغ أسفل الوادي. ستمشّطه الجنّيات، وتختبئ تحته الخيول وقت الظهيرة. حسنًا: الخيول والقوافل والفرسان. هاه؟ ابتسمي يا شقيّة.

ــ ومن أين ستأتي الخيول؟

سألتها ونظراتي إلى الأسفل، أتحاشى عينيها.

ــ سيأتون يا إيمان. سيجذبهم شَعرك من البعيد، من البحر.

ــ من البحر؟

ــ نعم، من البحر. البحر خلف الجبل يا إيمان. من البحر يأتي كلّ شيء. المطر والوحوش والطائرات والخيول.

غمغمت قليلاً «حسنًا، أنا لم أر خيلاً في حياتي. لكن من المؤكّد أنّ هناك خيولاً تأتي من البحر».. ابتسمت لي مرّة أخرى:

«شعرك يا إيمان سيجلب الخيول. أنت لا تعرفين سرّه».

ابتسمتُ ببطء. نسيتُ شمعة للحظات ورأيت الخيول والفرسان يختبئون تحت شعري الطويل، الممتدّ من أعلى الجبل حتى الوديان. خطرت في رأسي فكرة، ابتسمتُ وعضضتُ على شفتي. أدرتُ عينيّ دائرة كاملة:

ماذا لو رآهم أبي وهم مختبئون تحت شعري؟ قلت لنفسي. داهمني إحساس لذيذ. رأيته يجري خلفهم في الوادي، على خيله. كانوا يفرّون وكان يطلق عليهم الرصاص.

انسحبت أمّي من الديوان، وصعدت الدرج عائدة إلى المطبخ. تسمّرتُ في مكاني لبرهة من الوقت. اقتربتُ بريبة من ركن المجلس. جثوتُ على ركبتيَّ. تناولت حزمة أوراق مجموعة معًا بدبّوس واحد. كانت حوالى ١٢ ورقة. قرأت

بضعة أسطر في الصفحة الأولى. قلّبت الصفحات بسرعة. لم أجد شيئًا واضحًا عن اليهود. أعدت الأوراق إلى مكانها. تناولت حزمة أوراق أخرى. في أسفل الصفحة الأولى قرأت جملة أو جملتين تصف اليهود بالخنازير وتلعنهم. لم يسبق أن رأيت خنزيرًا في حياتي، حتى ذلك الوقت، وربّما لا أبي ولا أحدًا في القرية. ربّما ولا حتى الرجل الذي كتب تلك الأوراق ولم يكتب اسمه عليها! لا يتبادل الناس في قريتنا الشتائم بكلمة يا خنزير. فلا يعرف أحد ما هو الخنزير.

كنت قد سمعتُ من المدرّس قبل ذلك قوله إنّ اليهود أبناء القردة والخنازير. لكنّه قال أكثر من مرّة «هناك مسلمون أحقر من اليهود». لكنّه لم يقل إنّهم أحقر من الخنازير. لا أتذكّر ما إذا كان أشار إلى مكان بعينه حيث يتواجد هؤلاء المسلمون الأحقر من اليهود. لم أعثر على جديد في الأوراق. فقط في كلام أمّي وعينيها وفزعها رأيت الجديد.

غادرتُ الديوان وذهبت إلى غرفتي. أغلقتُ الباب، واتّجهتُ صوب الشبّاك الصغير المطلّ على السهول البعيدة. شردتُ ببصري. تذكّرت ملامح شمعة وأنا أودّعها قبل ساعتين من الآن. ابتسمتُ لها وأنا مرتبكة. كانت شابّة من قريباتها في المطبخ، أو ربّما في غرفتها، تستمع لأغنية شعبيّة من أغانينا. التفتتْ شمعة إلى الخلف حيث باب الغرفة التي يأتي منها الصوت ثم إليّ، وابتسمت. صرفتْ عينيها عنّي إلى الأرض. في عينيها قرأت كلامًا كثيرًا. لخّصته في جملة واحدة:

هذه أرضنا، ليس لدينا أماكن أخرى.

ذابت عيناي في المدى اللّامحدود. بشكل تلقائي وجدتني أردّد الأغنية التي كانت ابنة شمعة تستمع إليها قبل الظهر:

ما السبب ما السبب، يا مهجتي يا مُربرب.

ابتسمتُ، وأصدرت ضحكة مختنقة. مسحت دمعتي، وغادرت مكاني.

ألا تعتقد أنّ شمعة لديها قصّة أكثر تشويقًا وأهمّيّة

من قصّة ألبرينغو؟

إيمان

١٠ / فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

عندما قلتُ لك من قبل إنّك شمس الله، ولم يكن اسمُك إيمان حينها، لم تخبريني عن شعرك الطويل حتى الوديان. لا بد أن شمعة كانت ستطلب منك أن تساعديها في أمر جلل. لكي يهرب اليهود من القبيلة عليهم أن يجتازوا الوادي، كما أتخيّل الآن. كيف سيهبطون إلى الوادي. اللغز في شَعرك يا إيمان. لم تخلق الطبيعة شعرَك لتغفو تحته القوافل المارة في الوادي قليلاً. اسدلي شعرَك، حتى يصل الوادي، وامنحي اليهود فرصة أن يهبطوا عليه، وينزحوا إلى «الأماكن الأخرى».

أسدلت رودابه، أميرة كابول، شعرها من على سطح القصر حتى الحديقة، فصعد عليه العاشق زال. التقاها على السطح بعيدًا عن عيون الفرس. كان لا بدّ أن تبحثي عن ملحمة شاهنامه للشاعر الفارسي الفردوسي، الذي عاش في القرن الحادي عشر. قادت خصلات رودابه زال إلى خباء الحبيبة، فتنبّأت العرّافة بمولود سيهزم العالم. هل تعرفين، أيّتها الجميلة رابونزيل، ما معنى رابونزيل؟ تعني هذه الكلمة: دعي شَعرك ينسدل. في القرن التاسع عشر وُلدت أسطورة الجميلة رابونزيل في شرق ألمانيا. كانت مختبئة في أعلى برج، تغنّي. منعتها الساحرة من رؤية العالم الحقيقي، والحبّ. في أحد الأيّام ستغنّي. يجذب غناؤها عاشقًا هائمًا في الأحراش. يتوسّل إليها: أرجوكِ، دعي شعرك ينسدل.

على خصلاتها يصعد إلى أقاصي البرج، ويلتقيها. وعلى خصلاتها يتسلّل، ويفرّ.

لو أنّك، وبيتك بالقرب من قمّة الجبل، صعدت إلى القمّة قبل الفجر وتركت نجمة الصباح ترتاح قليلاً على كتفيك، وأسدلت خصلاتك على القرية والقرى المجاورة لسكنها السلام حتى الأبد. كيف لم تكتشفي السرّ الذي تركته الطبيعة لديك؟ لم أتغزّل بك منذ زمن، لكن لا علاقة لما أقوله الآن بالغزل. تعرفين الآن ما الذي حلّ بقريتك وكلّ القرى التي كانت تمتدّ حتى اللانهاية أمام عينيكِ. لا أدري ما إذا كان الفردوسي يرى إلى خصلات رودابه كما

أتخيّلك أنا الآن:

شعرُك يا إيمان كان تعويذة القرية.

عندما نفقد الحيلة والرؤية، وتخور قوانا أمام الطبيعة المتوحّشة نلجأ إلى التعاويذ. لا أقصد بالطبيعة المتوحّشة الوحوش والسيول، بل الطبيعة الداخليّة في الإنسان، ذلك القاهر الجبّار، الذي روّض السيل والوحش والجبل. إنّ أفضل تعريف للإنسان هو «الوحش المروّض». لكن لا يوجد دليل دامغ على أنّ ذلك الوحش مروّض بالفعل. كانت ماري كيللي، الكاتبة الإيرلنديّة، مثلنا الآن. خرجت من الحرب العالميّة الأولى منهكة، خائرة القوى. أمام القرى المحترقة، وجثث الموتى أمسكت كيللي بعنق مدام أنديكوت. لا بدّ وأنّها السبب في كلّ هذا. كتبت «التعويذة» وتركتها للتاريخ. تقول كيللي في التعويذة: تجلس امرأة عجوز أمام كوخ قذر في قرية نائية إلى الشمال من مقاطعة ديفون. تدخل ابنتها منزعجة: أمّاه، لقد ذهب كلّ شيء. وعلى الفور تكتشف العجوز أنّ كلّ شيء قد انتهى: الثور، البقرة، العجل، الدجاج. يجري حوار قصير بين العجوز وابنتها:

ـــ يبدو أنّ الإله يريد هذا يا أمّاه.

تردّ عليها الأمّ:

ـــ لا يا ابنتي، ليس الإله، إنّها مدام أنديكوت، هي التي تفعل كلّ هذا بنا، وسأجعلك تتيقّنين الآن من صحّة كلامي.

تقوم العجوز بزرع مجموعة من المسامير في كتلة من اللحم:

ـــ هذا قلب ثور مخصي، يا ابنتي.

تضع قلب الثور المخصي على الموقد. بعد لحظات تسمع طرقات خفيفة على الباب. تتسمّر المرأتان في مكانيهما. بعد لحظات تتوقّف الطرقات على الباب. تنتظر العجوز برهة، ثم تنهض. تفتح الباب، وتطلّ برأسها إلى الخارج عبر الظلام الكثيف.

ـــ تعالي، لتري. إنّها مدام أنديكوت، لا بدّ أنّها ميتة

الآن.

لن أقطع حديثك يا إيمان. تتذكّرين عندما قلتُ لكِ قبل أيّام إنّي صعدت في صباح رمضان إلى أعلى قمّة في صنعاء وجلستُ مع طائرة بلا طيّار لوحدنا. لو كنتِ هنالك، في ذلك الصباح، لقلتُ لكِ: هيّا، إيمان، أسدلي شعرك على صنعاء ليعمّها السلام.

لو أنّك أسدلتِ شعركِ من أعالي قمم صعدة على الوديان والمنحدرات لنامت تحته الخيول، ولما ذهبت إلى الحرب.

لماذا، يا إيمان.. لماذا؟

م. غ

عزيزي الكاتب،

لم يكن أبي يبغض اليهود. كان فقط يقول إنّ الآخرين ليسوا على ما يرام، أو إنّهم لا يعبرون السهول الصحيحة. إذا استجمعت كلّ ذاكرتي فلن أجد في كلّ أحاديثه المتفرّقة معي، والتي عادةً ما تكون قصيرة، سوى جمل مختصرة. كان السلفيّون، وهم آخرون أيضًا، قد اقتربوا من مناطقنا على نحو جعل حديث أبي متوتّرًا أكثر من ذي قبل. لن يتحدّث عنهم سوى باستخدام كلمة: الوهّابيين. كذلك بقيّة أفراد القرية. التحق بعض شباب القرية بمدارس الحديث الجديدة في صعدة، وأصبحوا وهّابيين. لكنّ الأمر لم يكن بلا صعوبات. كنت أقترب من السادسة عشرة، وكان فضولي للمعرفة يبتلع انتباهي لأيّ شيء آخر.

إذا وقفتَ على قمّة الجبل الذي يعلو منزلنا مباشرة، ونسيتَ لوهلة جدائل إيمان الطويلة، ونظرت إلى الفضاء المترامي أمامك لن تجد مدرسة حكوميّة واحدة. لو أمسكت ناظورًا بين يديك وتفحّصت المنحدرات والدروب والوديان على بعد عشرات الكيلومترات لن ترى طفلاً يحمل حقيبة، وزيًّا مدرسيًّا. لقد ترك سفر المدرّس إلى السعوديّة فجوة عظيمة في تلك الأيّام. وقعتُ في الفراغ، الفراغ الذي بلا حدود. كنت ألتقي على نحو شبه يومي بجاراتي وصديقاتي. لا أستطيع أن أسمّيهنّ زميلاتي، فنحن لم نكن نقوم بعمل مشترك. كما لم نكن نختلف عن بعضنا بشيء ما، سوى بعض التفاوت الطبقي الطفيف. فالذين يمتلكون عددًا أكبر من أشجار الرمّان أو القات تبدو بناتهم أسمنَ قليلاً من الآخرين. حتى نحن كان لدينا آخرون على الدوام. لم أجد في مكتبة أبي كلّها، ولا مكتبة جدّي التي خصّصنا لها غرفة خاصّة بعد وفاته، كتابًا يتحدّث عن الوهّابيين. يومًا بعد يوم، بدا الوهّابيّون أقلّ إثارة للخوف من ذي قبل. كانت صفيّة، أقرب صديقاتي، تكبرني بعامين اثنين. كانت في الثامنة عشرة عندما أخبرتني أنّها وقعت في غرام واحد من الوهّابيين من أبناء القرية. أهداها دزّينة من الكاسيتات، لكنّها اعتذرت عن قبول الهديّة. لا يمكنها الاستماع إلى شيخ وهّابي في القرية. قبلتُ منه

بعض الكتب الصغيرة، التي يسمّيها الكتيّبات. ولكي لا ينفضح سرّها، فقد خبّأت الكتب لديّ. قالت لي: أنت لا تعدمين الحيلة. ضحكتُ: هاتيها، سنقرأها. لو استدعى الأمر سنخبّئها عند اليهوديّة شمعة. جاءتني في واحدة من أيّام حبّها التي لم تدم طويلاً حزينة. لم تكن حزينة كما يمكن أن أفهم معنى الحزن. كانت تائهة. تعرف شعور المرأة، في مجتمعنا تحديدًا. لا تملك سوى الانتظار. الانتظار هو القرار الوحيد الذي تملكه، وهو أكثر الأفعال إثارة للقلق والتعب والألم.

ـــ البارحة، وقت صلاة العشاء، التقيته في إصطبل البقر.

ـــ يا مجنونة!

ـــ كان متهوّرًا. لا تسأليني كيف. أخافني نوعًا ما. قال لي إنّه قطع نصف طريق العودة مشيًا على الأقدام. تعطّلت سيّارة النقل، واستدعى الأمر الانتظار لساعات. لم يحتمل.

ـــ المجنون.

ابتسمت صفيّة بخجل، وسقطت كلّ الكلمات من شفتيها إلى الهاوية. رأيت أنثى مكتملة، بهيّة، مثل قمر شعبان أمامي. سألتها بشكل مباغت:

ـــ لكن... سارت الأمور كما يجب، أليس كذلك؟

ـــ لا أدري يا إيمان. لا أدري.

ـــ ما معنى هذا؟

أمسكت بساعدها الأيمن. كنّا في الديوان، ديوان أبي، كنّا وحدنا. الوقت قبل منتصف النهار. في هذا الوقت تكون المرأة ملكة المنزل في قريتنا. بعد ساعة ستصبح مجرّد طاهية تعمل طواعية. ثم ستعمل نادلاً بقيّة النهار. في الليل يدخل رجال قريتنا إلى قراهم يفعلون الشيء نفسه:

ينامون مع نسائهم بعد أن يطفئوا الفوانيس. ينهون الأمر بسرعة، ثم يضع كلّ منهم بضع مئات من الريالات

تحت مخدّة زوجته، ويغادر إلى غرفته الخاصّة لينام.

دعني أكن أكثر قسوة لأروي لك الحقيقة العنيفة: ثم تعمل المرأة في الليل كـ...

لنتجاوز هذه الفكرة، لا أظنّ أنّها ستضيف شيئًا فنّيًا إلى الرواية.

قلتُ لصفيّة:

ــ قرأت الكتب كلّها، كتبه. لئن يُطعن الرجل بمسمار في رأسه، أظنّه قال بمسمار أو ما شابه، خير من أن يمدّ يده إلى امرأة لا تحلّ له. كُتبُ الوهّابيين تقول هذا يا صفيّة!

ــ أنا لم أرتكب خطأ يا إيمان. لماذا تطلبين منّي أن أروي لك ما دار بيننا إذا كنتِ تشمئزّين من ذلك؟

ــ سامحيني، أنا أتحدّث عنه هو.

ــ لكنّك صديقتي أنا.

ــ صفيّة، افهميني. أنت فتاة تحبّ، وهو وهّابي يقول في كتبه إنّ كلمة الحبّ ليس لها معنى سوى الزواج.

ــ قال إنّه سيتزوّجني.

ــ هراء. إلاّ إذا توقّف عن الذهاب إلى ذلك المكان البعيد.

شردت صفيّة. أفلتت منّي للحظات. قالت لي إنّهما تحدّثا في الأمر من قبل وإنّه قال لها إنّ الإسلام دين رحمة، يتعامل مع المحبّين بطريقة مختلفة.

ــ قبّلك، يا صفيّة؟

ــ قال لي إنّه سيتخلّى عمّا يفعله لأجلي. وعندما نستقرّ في صنعاء سنعيش كما يحلو لنا تحت حماية الدولة.

ــ قبّلك؟

ــ إيماااان!

أمسكتْ يدي. كانت يدها ترتجف.

ـــ كيف كان شعورك، بربّك؟

ـــ لا أتذكّر. أحلف لك بالله وبأرواح السادة وآل البيت. لا أتذكّر. انمحى كلّ اللقاء فجأة. أنا سعيدة لأنّي لم أعد أتذكّر شيئًا.

ـــ حسنًا، سأقول لك كيف جرى الأمر. إِحِمْ إِحِمْ، اسمعي..

ثم دخلنا في دوّامة من الضحك، والجنون. ما إن سمعنا أذان صلاة الظهر حتى انهينا كلامنا فجأة.

ـــ أستغفر الله العظيم. اللهم لا تؤاخذنا.

ـــ يا ربّ! أستغفر الله العظيم.

ودّعتها إلى الباب الخارجي للمنزل، في الدور الأرضي. قلتُ لها وأنا أغمز بعيني:

ـــ عندما يجيء الفارس مرّة أخرى أخبريه أنّ عليه أن يقرأ كتبه جيّدًا قبل أن يوزّعها على الناس.

ـــ شششششششش يا مجنونة.

غطّت صفيّة وجهها، وعبرت الشارع الضيّق. كانت مرتبكة، وخائفة. لا تجرؤ الفتاة على الوقوف لأكثر من ثوان في باب منزلها. نسيتُ هذه القاعدة الذهبيّة، التي يترتّب على مخالفتها نتائج وخيمة. سرقتني صفيّة في مشيتها. لوهلة تخيّلتها ستعبر حتى آخر الشارع، ثم ستنحني شمالاً، هناك ستجد أحد مخارج القرية، ستجد الطريق الذي يجيء منه عاشقها الوهّابي. انعطفت صفيّة يمينًا، رفعت عباءتها رويدًا رويدًا كأنّها كانت تخشى تجاوز الحدّ المسموح به. نزلت بقدمها اليمنى. اختفت. وضعتُ كفّي على جبيني: الحقير! لا يلتقيها إلاّ وقت صلاة العشاء.

أغلقتُ باب المنزل، وصعدتُ إلى غرفتي.

كانت شمعة تحبّ صفيّة على نحو خاصّ. صارحَتْها ذات مرّة: أحبّ اسم صفيّة، ابنة سيّدنا. «أظنّها كانت تقصد الحسين» قالت صفيّة. أجبتها: لا أظنّ، فاليهود لا يرون الحسين سيّدهم. ارتجفت شفتا صفيّة: «حاشالله. ماذا

تقولين يا إيمان؟».

قلت لك إنّ صفيّة كانت تكبرني بعامين. كان أبوها رجلاً مبجّلاً في القرية. تعلم صفيّة أنّ زواجها من الوهّابي لن يحدث. فأسرتها لن تسمح بنقاش أمر كهذا، ليس لأنّ الوهّابي يرتدي ثياب الملائكة ويصلّي على نحو مختلف. ثمّة سبب آخر تحاول صفيّة تجاهله، وبدلاً عنه تستخدم كلمة «الدولة» عندما تتحدّث عن مستقبل علاقتهما. فأبوها سيّد مبجّل، يقول إنّه حفيد الرسول. كغيرها من بنات السادة، هذا الوصف سيعني على الدوام الأسر المنحدرة من نسل بني هاشم، ستنتظر عريسًا ذا مواصفات أسريّة خاصّة. لا بدّ أن يكون دمهما متطابقًا. في قريتنا ليس بمقدورك أن تكون يهوديًا أو هاشميًا. قالت صفيّة إنّها تنفق على الوهّابي في دراسته. ترى هل كان يحبّها؟ في المرّة قبل الأخيرة عندما عاد الوهّابي من مدرسته التي تقع في مكان بعيد كان مريضًا، قالت صفيّة. زارها في الإصطبل وقت صلاة العشاء، ولم يكن يرتدي زيّه الأبيض. كانت حرارته مرتفعة. أعطته صفيّة مبلغًا من المال ورجته أن يسافر إلى أقرب وحدة صحّيّة في مدينة صعدة. أخذ المال، واختفى بعد ذلك. الوهّابي رجل غريب الأطوار، فكّرتُ. هل تظاهر بالمرض ليحصل على المزيد من المال؟ كرّرت صفيّة أكثر من مرّة: كانت حرارته مرتفعة. يا إلهي! كيف لم أستوقفها هنا: كيف عرفتِ أنّ حرارته مرتفعة؟ لا بدّ أنّكِ وضعتِ يدكِ على جبينه وخدّه؟ وأنّه أحسّ ببرودة كفّك فوضع كفّه عليها؟ لا بدّ أنّه قال لك إنّه الآن على ما يرام، وطلب منكِ أن تضعي كفّك على قلبه لتتأكّدي بنفسك.. عندما زرتها في اليوم التالي نسيتُ هذه الأسئلة.

غاب الوهّابي عن القرية لفترة طويلة، بلغت زهاء ثلاثة أسابيع كما حسبتها صفيّة. كانت خائفة ومسروقة طيلة الوقت. ظنّت أنّه ربّما يكون قد مات. لم تجرؤ على سؤال أحد. حتى إنّها لم تفكّر في سؤال أمّ الوهّابي، تلك الفلاّحة الفقيرة، عن ابنِها. ينحدر الوهّابي من أسرة متواضعة لا تملك قدرها ولا الأرض التي تزرعها. عندما تتخيّل صفيّة ما الذي يمكن أن يحدث للقرية لو أنّ أحدًا

رآها في منزل أمّ الوهّابي فإنّ ساقيها ترتجفان. فكيف ستجرؤ ابنة السادة على زيارة ابنة الإصطبل؟ حتى لو سمح لها والداها فإنّ القرية لن تقبل أمرًا كهذا. سيعتقدون أنّها نسفت ليس عقائدهم وحسب، بل تاريخهم. سيبدو الأمر كما لو أنّ صفيّة أخذت مجرفة كبيرة وحفرت قبور أجدادهم، وألقت بأجسادهم للنسور.

فاجأتُها: «صفيّة، زوري أمّه، وتأكّدي بنفسك، قولي إنّها كانت مريضة».

اعتدلت في جلستها، ونحن في غرفتها. أمسكت بكفّي: مستحيل، يا زينب.

سألتها: لمَ؟ أليسو بشرًا مثلنا؟ ماذا لو أنّهم فقراء، انظري إلى القرية، كلّهم فقراء.

هزّت رأسها بإصرار: لم تفعله امرأة من نساء السادة قبلي.

أحسست باختناق مفاجئ. كنت أعلم هذه الإجابة. لو أنّ الحوار جرى بالمقلوب، أعني لو قالت لي صفيّة إنّها تفكّر بزيارة أمّ الوهّابي.. كنت سأضع كفّي على فمها وأنا أهمس بفزع: إيّاكِ أن تعيدي هذه الفكرة مرّة أخرى.

رغم ذلك ما إن سمعت إجابة صفيّة حتى قلت لنفسي: هذه ليست صفيّة التي كنت أقطع معها الوديان في الطفولة لنزور شمعة، اليهوديّة.

ـــ اسمعي يا صفيّة، كلامك يزعجني. أليس الناس سواسية؟

ـــ كلّ الناس سواسية. جميعهم.

ـــ وأنتِ وأمّ الوهّابي من الناس؟

ـــ نعم، لكنّنا لسنا سواسية. لا تحاصريني بأسئلتك. أعترف لك أنّي لا أفهم لماذا. ربّما كانت إرادة الله!

ـــ هل أنت متأكّدة أنّها إرادة الله؟

ـــ أنا لا أهتمّ لكلّ هذا. ما يهمّني الآن هو.. هو. ليته بخير الآن.

كنت، بطريقة ما، مقتنعة بما تقوله صفيّة. وبطريقة

ما، أيضًا، كنت أحاول أن أدينها. من أعماقي بدوت فزِعة ووجلة. لم تقل شيئًا جديدًا، مع ذلك فإنّ الشيء غير الجديد الذي قالته هزّني. هزّ عقيدتي بضراوة، وأنا بعدُ لا أزال أتحسّس طريقي في ذلك العالم الضيّق والمظلم. ولكي لا أكون قاسية على قريتي سأقول لكِ: إنّه أيضًا كان عالمًا منكوبًا، ومحرومًا.

في العادة تجري الأمور على هذا النحو: يحضر المرضى إلى دار والد صفيّة المكوّن من ثلاثة أدوار. لديه ديوان خاصّ للقراءة على المرضى. يقرأ عليهم الآيات القرآنيّة ويعيذهم ببركة أرواح الأجداد. لصفيّة عمّة مسنّة تسكن بالقرب من منزل شقيقها. لا أعرف الكثير عن سيرة هذه المرأة. حتى إنّي لا أتذكّر أنّها كانت أصغر أو أكبر سنًّا. تبدو هكذا منذ قديم الزمان. تقرأ عمّة صفيّة القرآن على السيّدات وتعيذهنّ بأرواح السادة من آل بيت النبي. منذ الأزل، ولا أدري ماذا يمكن أن تعني هذه الكلمة، والأب يقرأ القرآن على الرجال المرضى، والعمّة تقرأ على النساء المريضات. كانت حالة الكثيرين تسوء، وكانوا ينقلون على الأكتاف إلى أقرب موقف لسيّارات النقل، يبعد مسافة نصف ساعة مشيًا. لا يجرؤ أحد على ملاحظة هذا الأمر.

ـــ سألتني صفيّة: هل تعتقدين أنّ والدي سيوافق؟

ـــ «على ماذا؟» سألتها.

ـــ سيقرأ القرآن على يحيى؟

نسيت أن أخبرك أنّ يحيى هو اسم الوهّابي.

هززتُ كتفي. قالت صفيّة: لا أظنّ.

كانت الحرب الثالثة قد اشتعلت. غادر شقيقي حسن ومجموعة من فتيان القرية إلى الحرب. كانت النسوة يلتقين في أكثر من منزل، يتبادلن الشكوى والخوف، ويسألن الله أن يعيد أبناءهنّ سالمين. لم أسمع امرأة، على الأقلّ أنا، تدعو لهم بالنصر، بل بالعودة. عندما عادوا من الحرب، بعد أشهر، غمرت السعادة كلّ منازل القرية. لكنّ الوهّابي لم يعد إليها بعد ذلك. لقد اختفى إلى

الأبد.

حسنًا، سررتُ بحكاية الجدائل الطويلة. نعم، كانت جدائلي قد وصلت إلى أسفل الوادي. لا تغرق في الحلم. لن أفعل كما فعلت رودابه، ولن تصعد إلى غرفتي كما فعل الأمير زال. لا تكتب هذه الجملة في الرواية، ولا تنشغل بها عن الحكاية التي أقصّها عليك.

في تلك السنة، بين الحربين الثالثة والرابعة، كان الشتاء أطول من المعتاد. غرقت قريتنا في الغيوم لأسابيع متواصلة. ظهر في القرية ما يشبه الوباء. عادت الشمس الباهتة بعد ذلك، وتحدّث الناس في القرية عن دور اليهود في هذا الوباء. قال لي حسن إنّه يكره اليهود، لكنّه لا يصدّق هذه القصّة. صفيّة قالت إنّها تحبّ شمعة لكنّها مقتنعة بصحّة ما قاله أبوها عن اليهود.

كانت الأخبار تأتينا تباعًا. احترقت سيّارة يهودي في الموقِف، ولم يُعرف الفاعل. كان اليهودي الوحيد الذي يملك سيّارة. امرأة يهوديّة ناحت في الوادي لأنّ أحدهم قطع أشجار القات التي تملكها. لا أدري ما الذي حدث لشمعة، فمنذ ذلك الحين لم يعد أحد يجرؤ على زيارتها.

في يوم من أيّام ذلك الوباء كنتُ أقف على شبّاك الديوان. كان بمقدوري رؤية القرية من دون أن يراني أحد. أستمع إلى المارّين جوار بيتنا، وأتلصّص على النساء والأطفال. سمعت طفلاً يحلف لآخر:

أقسم بالله أنّه من قرية آل سالم.

كانا طفلين. أحدهما يبيع ويحلف، والآخر يشتري ويطلب اليمين. لا أدري ما الذي جلبه الطفل من آل سالم في ذلك الشهر من السنة. تسمّرت في مكاني. كالعادة، نثق بكلّ شيء يأتي من جبل آل سالم، اليهود، ولا نثق بهم.

إيمان

١١ / فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان..

قرأت رسالتك مرّتين. ذكّرني الوهّابي بالمجذوب عبد السلام في رواية الخزرجي. الطفل الذي كبر على هامش القرية، وبعد عقود من الزمن يختفي في الجبال إلى الأبد. تركه مولاه الخزرجي لقدره البائس، فانهزم. لا يستمرّ شعور المرء بالاشمئزاز من يحيى، الوهّابي، طويلاً. فسرعان ما يتعاطف معه عندما يسقط مريضًا ولا يجد وليًّا من أولياء الله يرقيه بالقرآن، لأنّ أمّه فلّاحة فقيرة. عندما ألقت رابونزيل بجدائلها من أعلى البرج لم يكن الرجل الذي توسّل إليها في الأسفل يعرفها. حتى لو أصبح عاشقًا فيما بعد، فذلك شأن آخر. لو أنّك ألقيتِ للوهابي بجديلة لعاد من الجبال، والتقى أمّه وصفيّة. كانت صفيّة ستقرأ عليه ما تحفظ من القرآن، ففي أوردتها يجري ذلك الدم الذي يمنح القرآن معنى، لا العكس. أليس هذا هو ما تقول الحكاية؟ لو أنّك قلتِ لي، يا إيمان، إنّك تعالجين بالقرآن، أو بأيّ شيء آخر من التلاوات، لو أنّك شامانة في غابة، لجئتُ إليكِ. سأخلع ملابسي كما يفعل فرسان القصص الأسطوريّة، أستلقي على صخرة قرب نهر، وأناديكِ بوهن: امنحيني الخلود، أو أصلحي روحي أيّتها القدّيسة، يا ذات الجدائل الطويلة.

كان مولاي الشاعر القديم عاشقًا، وكان يزور دار حبيبته مدّعيًا حاجة ما، لعلّه يسمع خطواتها في درجات البيت، وهذا أكثر ما يمكن أن يناله في زيارة واحدة. كانت القرية صغيرة، ولم يكن فيها الكثير من الحاجات. في ليلة ما صعد إلى سقف بيته، وصرخ في الوجود: أفنيتُ حاجاتي فماذا أقولُ؟ أنا آخذك بعيدًا عن القرية، ليس بعيدًا جدًّا. ها أنا أتعاطف مع الوهّابي العاشق الذي ربّما فتكت به الحمّى في الوادي، أو قتله الأطفال المنتصرون وهم في طريقهم إلى قراهم ليحدّثوا أهلهم عن المعجزات التي نالوها.

حسنًا: يا لروعة إشارتكِ يا إيمان إلى أولئك الذين تتدهور صحّتهم، وينفقون في الجبال مثل الماعز، رغم بركة السيّد وقرآنه المجيد. أنا لا أسخر منه، بالمطلق.

لسنين طويلة كان يقرأ وكانوا يموتون، فيأتي آخرون يذهبون إليه ليقرأ عليهم. لم يفكّر أحدٌ قطّ في اختراق هذه الحلقة الحلزونيّة بالشكّ، أو الأسئلة. لا يوجد في رأسي الآن أيّ مفهوم آخر للسلطان المطلق أكثر دقّة من هذا المفهوم.

علّميني يا ذات الجدائل الطويلة، علّميني، واسقيني.

أنتِ تمعنين في تفكيك أسرار القرية الكبيرة بيسر شديد، حتى إنّ قرّاءك لن يصدّقوا أنّك فتاة نشأت في صعدة. سيفهمون قصّتك مثلي: إنّها الباب الذهبي لليمن كلّه.

بينما سيشعر أعداؤك الذين هزموك قبل سنين بالنشوة فيما لو قرأ عليهم أحد هذه القصّة. لا أقصد بأعدائك جيرانك، بل الآخرين الذين استجابت قريتك لندائهم الغامض. إنّ امرأة تتحدّث على هذا النحو لا بدّ وأنّها شهادة جودة للنظام الاجتماعي والأخلاقي في صعدة. هاكِ حدثًا مشابهًا. مع نهاية الثمانينيّات قرّر شباب مدينة لايبتسيج في شرق ألمانيا الثورة ضدّ النظام. رحّبت الدوائر الغربيّة بهذا الحراك الذي سيصبّ لصالحهم في الحرب الباردة. لكن، ويا للغرابة، لم تكن التلفزيونات الغربيّة تعرض مظاهراتهم. يُعتقد أنّ السبب يعود إلى طبيعة المظاهرات نفسها، وليس إلى أهدافها. كانت المظاهرات تبتدئ في الخامسة مساءً، بعد انتهاء ساعات العمل رسميًّا. تضع المظاهرات أسوارًا على الحدائق والمتنزّهات والأشجار. ترفع شعارات بترتيب أخّاذ، من دون أيّ إشارة إلى الأعداء. مع انتهاء التظاهرات ينظّف الثوّار شوارعهم، ثم يعودون مع الفجر إلى العمل. رأى الغرب، ربّما، أنّ مثل هذا السلوك الفائق هو شهادة جودة لحكومة ألمانيا الشرقيّة ونظامها الشيوعي. سامحيني لأنّي ألقيكِ بعيدًا خارج أسوار قصّتك، خارج حدود القرية. غير أنّي لا أظنّ أنّ هذه المعلومة ستزعج القارئ. لنعُد إلى جدائلك الطويلة، إلى الأمير زال وهو يناغي رودابه: دعي جديلتك تنسدل.

م. غ

عزيزي الكاتب،

لاحظ قرّاء الرواية أنّك انشغلت بجدائل إيمان وشعرها الطويل عن تاريخ ١١ فبراير الذي كتبت فيه رسالتها الأخيرة. لقد شعروا بالامتعاض الشديد. حتى إنّك تجاهلت الأنهار البشريّة التي سالت البارحة في شوارع البلاد كأنّ الثورة حدثت بالأمس لأوّل مرّة. أتفهّم امتعاض قرّائك، غير أنّي كأنثى لا أشاركهم هذا الشعور. هل يمكنك تخيّل هذه الصورة: شابّ يمشي في الحشود، هتافات الثورة تحاصره من كلّ مكان. يهتف بأعلى صوته لأشواقه وأحلامه. يرى امرأة في بلكونة، يلمح جدائلها الطويلة فيفقد إحساسه بالزمن والمكان، أي بالثورة. كيف لم أكتشف كلّ هذا من قبل؟

عادت الحرب، ثم غابت. لكنّها سرعان ما عادت من جديد. لا يعرف أحد الطريق إلينا أكثر من الحرب. إنّها الرحّالة الوحيد الذي يكتشفنا كلّ سنة، ثم يهيل علينا التراب ويمضي لبعض الوقت. حتى إنّ بعض نساء القرية كنّ يحلفن بالله إنّها الحرب العاشرة، عندما كانت الحرب الرابعة تضرب الطبول والمدافع.

بين الحربين، الخامسة والسادسة، مرض أبي. مرض فجأة. عاد حسن من الحرب الخامسة وعاد معه بعض شبّان القرية الذين رافقوه إلى الحرب. لم يعد الآخرون إلى الأبد. قبل الحرب الخامسة كان حسن يقول عنهم: المجاهدون. بعد الحرب الخامسة لن يستخدم هذه الكلمة مرّة أخرى. كان حزينًا جدًّا هذه المرّة. لم يتحدّث عن أيّ انتصارات. تحدّث عن ليلة، لا أدري أكان ليلاً أم فجرًا، حدثت فيها مواجهة شرسة مع قوّات الجيش. تقدّمت الجبهة التي يقاتل فيها حسن. وقع الكثير من القتل لدى الطرف الآخر. قال حسن إنّهم عبروا على الجثث والجرحى، فتّشوهم وأخذوا ما يملكونه في جيوبهم. أخذوا أيضًا زمزميّات الماء. إذا تذكّرت شقيقي حسن فأنا أتذكّره منذ الطفولة المبكّرة. كان قريبًا منّي، عشنا كلّ شيء معًا، خطوة خطوة. إلى أن بدأت ميولي تتّجه إلى الكتب وميوله إلى الفروسيّة. في تلك المعركة التي رواها حسن قال إنّ

أحد الجنود الجرحى حرّك ذراعه بينما كان المجاهد يسلبُه. نهض المجاهد، قال حسن، ووضع قدمه على صدره ووجّه بندقيّته إلى عنقه. قال له الجريح: ماء. ماء. أرجوك. بصق المجاهد في وجه الجندي وكال له الشتائم وهو لا يكاد يرى ملامح وجهه تحت الظلام. استمرّ الجندي في توسّلاته: ماء، أرجوك. كانا يتبادلان الكلمات، الجندي يتوسّل طلبًا للماء، والمجاهد يهينه بالكلمات، صدر الجندي تحت قدم المجاهد النحيلة، وتوسّلاته تلفح وجه المجاهد في ذلك الليل البارد. هذه الصورة لم يسردها حسن، رسمتها أنا لأيّام طويلة في مخيّلتي.

قال حسن: «كنتُ أسمع صوت التصاق لسانه بتجويف فمه قبل أن ينطق كلمة ماء».

قفز حسن من مكانه ودفع المجاهد عن صدر الجندي. «حدثت مشادّة كبيرة بيني وبينه، كدنا نتقاتل بالسلاح» قال حسن. تدخّل المجاهدون الآخرون وفضّوا النزاع. بعد صمت قصير، ربّما لالتقاط الأنفاس، سمعوا الجندي يقول:

أخي، أخي كان.. أخي جا.. جاااء من تعز إلى صعدة قبل سنين. كان مدرّسًا للعلوم.

التفتنا إليه، اقتربتُ منه، قال حسن. «كان قد وضع كفّه تحت خدّه، ولم يعد ينتظر الماء. كأنّه أراد أن يحكي لنا حكايته قبل أن ينام إلى الأبد».

اقترب منه حسن، جثا على ركبتيه ليسمعه على نحو أفضل. لكنّ الجندي لم يضف كلامًا آخر، ولم يحرّك ذراعه بعد ذلك. انفجرت عيناي مثل نهرين. هربت إلى غرفتي. توقّف حسن عن الحكاية ومسح دمعتيه. أمّي مسحت دمعتها، وكذلك شقيقتي. أبي لم يبكِ، لكنّه بدا متأثّرًا بدرجة عميقة. بكيت في غرفتي. بكيتُ كأنّي اكتشفت البكاء لتوّي. جاء حسن إلى غرفتي، فتح الباب ودخل. كانت غرفتي مضاءة بالفانوس، ضوء أصفر مع قليل من الدخان في جوّها. ليس لديّ سرير في غرفتي، أمتلك فرشًا صغيرًا ولحافًا سميكًا. في الخارج صوت البرد والريح والكلاب. جثا حسن على ركبتيه أمامي بالطريقة نفسها التي جثا بها، كما وصفها، أمام الجندي الجريح.

ـــ إيمان؟

ـــ (وأنا لا أنظر إلى وجهه) قتلتم شقيق مدرّس العلوم؟

ـــ أنا لم أقتله يا إيمان، ولا أعرف من هو مدرّس العلوم. ربّما كان يكذب.

ـــ لا يكذب الرجل وهو يموت.

ـــ أو كان يهذي؟

ـــ حسن، توقّف أرجوك. عند الموت يهذي الناس بالحقائق لا بالأكاذيب. أنت تعرف هذا جيّدًا.

ـــ إيمان، اسمعيني.

ـــ هل قتلتم أيضًا مدرّس العلوم؟ ها؟ بحثتم عنه ودفنتم جثّته؟

ـــ اهدئي يا إيمان. أرجوكِ. أنتِ حتى لا تعرفين أين هي تعز.

ـــ تعز؟ أرسلت لنا مدرّسًا للعلوم وهي لا تعرف من نكون. ألا يستحقّ مدرّس العلوم قليلاً من الماء قبل أن يموت؟

ـــ كان جنديًّا يا إيمان يحمل السلاح، قتل رفاقي. لم نكن في درس للعلوم.

ـــ لكن شقيقه جاء ليدرّس العلوم. ألا يستحقّ قطرة ماء حتى وهو يموت؟ هو لا يعرف من أنت، ولا من نحن يا حسن. أمرته الدولة، التي هي أكبر منه.

ـــ أنا حزين يا إيمان مثلك، اهدئي قليلاً، هيّا!

ـــ إيّاك أن تذهب إلى هذه الحرب مرّة أخرى.

ـــ أعدكِ، لن أفعل.

ـــ لماذا فعلت من الأساس؟

ـــ خلاص يا إيمان، اهدئي، أرجوك.

ـــ أنت لم تفعل غير أنّك قتلت شقيق مدرّس العلوم التعزّي، وتركت أبناء القرية الذين خرجوا معك جثثًا في

الجبل، وعدتُ. أنت بطل يا حسن؟ هذه هي البطولة التي كنت تعدّ نفسك لها؟

كنت في التاسعة عشرة. كانت الحياة تدخلني من كلّ جوانحي. كانت جدائلي قد بدأت تسيل من أعلى الجبل. من المفترض أنّي في سنّ الدخول إلى الجامعة لو أنّي وجدت طريقًا إلى المدرسة. عاد المدرّس عبد الحافظ من السعوديّة. ربّما لم أذكر لك اسمه من قبل. لم يعمل أكثر من خمس سنوات. عاد ليشتري منزلاً، لكنّه كان قد تغيّر كثيرًا. لن أعيد عليك حكايته، سأذكّرك فقط بأنّه اضطرّ لشراء بيت في قرية يهود آل سالم، فقد كان وهّابيًّا جديدًا.

انتهت الحرب الخامسة، وكانت قد اقتربت كثيرًا من القرية. منذ الحرب الرابعة اقتربت أصوات المدافع منّا. كما اقتربت الطائرات من الجبل. حتى الحرب الرابعة كنّا فقط ننتظر الأخبار في الراديو، ومع المسافرين. في العامين الأخيرين، أي في الحربين الرابعة والخامسة، اشتركت قريتنا في الحرب بصورة كبيرة. كلّ حرب كانت تجرّ معها قرى جديدة إلى الحرب التي ستليها، قال والدي. وها قد جاء الدور علينا. سألته: من الذي يفعل ذلك، ولماذا يفعل ذلك؟

قال كلامًا لم يبقَ منه شيء في رأسي. تعرف، ذلك الكلام الذي تحسّ أنّه خطير للغاية لكن أجزاءه لا يمكن ربطها ببعضها لذلك سرعان ما تنساها، بالرّغم من أنّك لا ينبغي أن تفعل ذلك.

أصبح لدينا في قريتنا ديوان عزاء متنقّل. في العامين الأخيرين قُتل أكثر من ١٨ شابًّا من أبناء القرية. أتذكّر أغلبهم، كانوا في مثل سنّي. لعبنا صغارًا في أزقّة القرية وبالقرب من المسجد. عندما وَصَلَنا نعي أوّل قتيل دوّى اسمه في أعماقي. كان لا يزال في ذاكرتي طفلاً. ها قد كبر، أصبح شابًّا ناضجًا، وقتيلاً. قيل لأمّه زفّيه شهيدًا إلى الجنّة. زرناها لتعزيتها، وتهنئتها بالشهادة. جلست امرأة إلى جوارها تواسيها، وتحدّثها عن الشهادة واليوم الآخر. لم تنطق المرأة سوى ببضع كلمات عن الدنيا. قالت إنّه كان يطيعها في كلّ أمر، ويملأ حياتها نورًا.

قالت لها امرأة من المعزّيات إنّه الآن في الجنّة، فردّت الأمّ ببضع كلمات. قالت إنّها ستعيش بعده في ظلام وإنّها متأكّدة أنّه بحاجة إليها أكثر من حاجته للجنّة.

غادرتُ منزلها بعد أقلّ من ساعة. قبل سنين طويلة، في طفولتنا، سألني وأنا خارجة من دكّان القرية عن سعر الجزمة الجديدة التي ألبسها. قلت له لا أعرف، اشتراها أبي من مدينة صعدة. قال إنّ أحدًا لم يشتر له حذاء منذ فترة طويلة. كنت ربّما في التاسعة من عمري. قلت له: عندما يكبر المرء يمتلك المال ويشتري كلّ شيء.

ابتسم، كان سعيدًا. لقد انتظر طويلاً حتى يكبر، ليشتري لنفسه زوجيْ حذاء، لكنّه ما إن أصبح ناضجًا وكبيرًا حتى أصبح أيضًا ميتًا.

كان الوطن يساوي بالنسبة له نعلين. لم أذكر لك اسمه. حتى عندما عاد جثّة هامدة لا أظن أنّ ثمّة من اكترث لاسمِه أو تذكّر أنّه كان يملك اسمًا في الأساس!

إيمان

١٣ / فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

أتذكّر حوارنا الأخير قبل أقلّ من عام على الفيس بوك. سألِتِني كيف سيكون شعوري إذا عرفت الحقيقة، فقلتُ لك ما هي. قلتِ لي:

«لو اكتشفت أنّي هاشميّة، واسمي بالفعل زينب. أو أنّي عبّاسيّة واسمي أموي».

لا شكّ أنّك تتذكّرين إجابتي. في تلك الليلة قلتِ إنّك ستغادرين الفيس بوك، ومن الأفضل أن لا نتواصل مستقبلاً. لم نكن قد بنينا الحبّ على تلك الطريقة المتينة التي تأخذ زمنًا طويلاً لتدوم حتى الأزل. سأجدكِ يومًا ما، قلتُ لكِ. فتركتِ لي ابتسامة، وعطّلتِ حسابك على الفيس بوك. ها أنا أستمع إليكِ مجدّدًا، كما كنتُ أفعل من قبل، وأنت فتاة تروي. ربّما إنّها ليست هاشميّة واسمها ليس زينب.

فكّرت في كتابة رواية حول أن تحبّ فتاة هاشميّة. في صباح يوم من الأيّام الأخيرة للثورة وجدتُ رسالة منكِ تقول:

«انتظرتك البارحة، لكنّك تغيب كالعادة. أردت أن أقول لك إنّ كلماتك وعباراتك التي أقرأها على الفيس بوك دخلت في لغتي، وفي حديثي مع صديقاتي. البارحة قلتُ لصديقتي: أفاا عليك. تمامًا كما تكتبها أنت لأصدقائك على الفيس بوك، رغم إنّي متأكّدة أنّها ليست من مفردات لهجتك».

لم تكوني هاشميّة عندما كتبتِ تلك الرسالة، لذا تركت أثرًا عميقًا، له حدود. لو أنّك قلتِ لي في تلك الرسالة، أو قبلها، إنّك هاشميّة لسجدتُ شكرًا للإله، ولانهارت كلّ الحدود. أن يحبّ المرء فتاة هاشميّة يعني أنّ كلّ وردة في الكون ستتعاطف معها، فهي آخر امرأة في العالم تعثر على الحبّ كما تريد. أمّا هو فسيصبح فجأة إله الورود كلّها، القدير الذي بعثها في ليلة واحدة.

كان الأمر سيبدو وكأنّي دخلت قريشًا من كلّ جهاتها. لن أحتاج إلى جدائلك الطويلة لأدخل قريشًا،

وأحتلّ أمّ القرى. لكنّني سأحتاج إليها لأمكث في مكّة بعيدًا عن العيون. كان شعراء مكّة يبتهلون للربّ حتى يصيب عيون الرقيب بالعمى. ما إن تقع في غرام فتاة هاشميّة، قال صديقي الشاعر، حتى تقع في الحبّ المحرّم. ينمو بداخلك، فجأة، العاشق والبطل معًا. لطالما كنتُ عاشقًا، أنتظر البطل الذي سيحمل العاشق على كتفيه. أصدقكِ القول يا إيمان إنّ الأمر لم يكن يتعلّق بي فقط. بل بكِ أيضًا، على أن تكوني «زينب» وهاشميّة أيضًا. سأمثّل بالنسبة لك البطل المحرّم. ستجرّبين ذلك الألم العميق الذي يوقظ في أعماقك ليس اللذّة وحسب، بل الشفاء والمقاومة. البطل المحرّم، أنا عندما أكون حفيدًا لفلّاح، وأنتِ عندما يكون اسمك «زينب» وتنحدرين من سلالة هاشميّة، هو إيثاكا. عاد أوديسيوس بعد حريق طروادة إلى إيثاكا، فضاع في البحر عشرين عامًا. اختطفته الجنّيات، وساومنه على الحبّ والنجاة. كانت محبوبته بينيلوب عاكفة على النول، تنتظره. ربّما اكتشفت بينيلوب أنّ انتظار حبيبها يبعث موجات من اللذّة والألم المعالج من أعماقها حتى أطرافها، من شفتيها حتى الإبرة، أكثر من اللذّة التي ستجنيها بعد وصوله إلى إيثاكا.

هكذا دائمًا، حتى إذا لم تصل إلى إيثاكا فأنت قد عرفت الطريق إلى إيثاكا، كما يقول الشاعر اليوناني كفافيس. أحيانًا يخيّل إليّ أنّ الشعراء لا يثورون ضدّ طبقات النبلاء، ففي بيوت أولئك الوحوش يجدون الغرام المخبّأ، وهو غرام محرّم اجتماعيًّا. بينما يمثّلون هم، أعني الشعراء والمثقّفين بالطبع، لنساء الطبقات النبيلة الأبطال الحرام. ما الذي جعل ڤولتير ينسى كلّ ما يكتبه عن الإنسان فجأة لمجرّد أن تصله رسالة من الإمبراطورة الروسيّة كاترين، أو يمثل أمام قدميها. دعني أقل: ما إن تقع عيناه على ساقيها.

قلتُ لكِ لو أنّكِ كتبتِ في رسائلكِ الأخيرة إنّك هاشميّة لأشعلت تلك الرسائل مدن التاريخ كلّها في رأسي، لحاصرت صنعاء، أو أنقذت الثورة. كان أوفيد، الشاعر الروماني، يؤلّف كتابه: فنّ الهوى. فوقع في غرام محرّم. كان مجرّد شاعر، لذلك نفاه الأمير إلى جزيرة بعيدة ليموت

وحيدًا كثمن باهظ لاقتحامه المخبأ الصغير حيث الأميرة تخبّئ قلبها، القلب المحرّم. مات أوفيد سعيدًا، لقد نال أكثر المشاعر خطورة ووحشيّة: ذلك الحبّ الذي ينسف الطبقيّة من داخلها. ما إن تقع فتاة من الطبقات النبيلة بين يدي العاشق المسحوق حتى يداهمه ذلك الشعور الطاغي: ها أنذا أمارس الغرام مع الطبيعة ذاتها، مع الكون.

لا يفهم قلب الهاشميّة سوى نورها وهو يتناقص مع الأيّام. وما إن تصبح عارية من النور حتى تغدو شجرة ليس لظلّها الطويل حدود.

يخيّل إليّ أنّك أنتِ زينب، وأنّ إيمان كانت صديقتك. حتى لو لم يكن الوضع كذلك، فأنا أجد في كلماتك تلك الريح الصحراويّة التي جاء بها النبي إسماعيل من الشمال. أشتمّ رائحة دمِك، لا خصلاتك وحسب. سامحيني، أنا أتحدّث إليكِ كما لو أنّكِ لا تزالين على سطح منزلك في القرية تراقبين جنائزها، وأنا كذئب وحيد على الجبل الآخر المطلّ على الوادي، لا أرى الجنائز، ولا السواد المخيّم. أرى فقط قلب امرأة يهزّ بخفقاته ساحة الحرب، ويغمرني حتى ما بعد النبع.

ها أنذا، كالعادة، أعطّلكِ عن روايتكِ، عن كلّ تفاصيلها المفترسة.

تحدّثي يا إيمان، ولا تكترثي للقصّة التي أرويها على هامش روايتك. أو اكترثي قليلاً.. قليلاً

بربّك.

م. غ

عزيزي الكاتب،

يبدو لي، إذن، أنّ هذه الفكرة هي التي دفعتك للصمت عندما قلتُ لك سأعطّل حسابي وأختفي. تركتُ لك ابتسامة، لكنّك أعطيتني رابطًا لفيلم. لم تقل ما هو، ولا لماذا. نسخت الرابط في ملفّ وورد على جهازي، وانتظرتُ أشهرًا. لم يكن جسدي قد تخلّص من حديثك، ولا أنفاسي من حرائق كلماتك. استعدتُ نفسي بالتقسيط. أوافقك أنّ ذلك الحبّ الذي اكتشفناه سريعًا، وتحدّثنا عنه بسرعة أكبر، لم يكن الحبّ الذي يبنى من الأحجار ليدوم. عندما أتذكّر كيف بنى أجدادي قريتنا أشعر بالثقة، والحسد. يحمل الحبيب الحديد والنار ثم يهدم الصخر، وينحت الجبل. قبل أن يضع الحجر يحفر له مكانًا. أعترِف لك أنّي أحببتك كأنّي وجدتُك منسيًّا في الطريق. لم تقاتل الأعداء حتى تستخلصني، ولم تغامر كما فعل الأمير زال. أنت أيضًا لم تركب البحر مثل بطلك ألبرينغو. كلّ ما في الأمر أنّك كنت تردّ على أسئلتي، وكنتَ تدسّ بعض الجمل التي أيقظت الورود في أعماقي، ثم لأشهر كثيرة بعد ذلك، كانت ستّة أشهر فقط، استمرّ صهيلك في أعلى التبّة فلم تنم الفرَس البيضاء في الوادي.

شاهدت الفيلم مع صديقتي زينب في صنعاء، صديقتي التي حدّثتك عنها من قبل. «مرتفعات وذرينغ». قلت لنفسي: أعرفك يا مروان، لا بدّ وأنّي سأجد رسائلك كلّها في هذا الفيلم.

تجري الأحداث في الريف، إلى أن يفكّر هيثكليف الشابّ بالزواج من كاترين. كاترين ابنة إقطاعي ثري، أمّا هيثكليف فوجدوه طفلاً مشرّدًا، احتضنوه معهم إلى أن أصبح شابًّا. قالت كاترين لهيثكليف إنّها تحبّه، لكنّها لن تتزوّجه.

«زواجي بك سيخفض من درجتي الاجتماعيّة» قالت له كاترين.

تمنّيتُ لو أقول لك إنّي فتاة هاشميّة. وعندما تجاهلتُ أمنيتك أحببتني على طريقتك، كأنّي أخبّئ في ذاتي فتاتك الهاشميّة. لكنّي أحببتك كقروي صاف أخطأ

الطريق إلى حبيبته، ولم ينتبه.

قرأت رسالتك الأخيرة مرّات عديدة. تتحدّث كأنّك هيثكليف، تنتقم منّي بالكلمات كما لو كنتُ كاترين. تريد أن تقع في غرامي لتنتصر على درجتي الاجتماعيّة، وتسقّي هذا الحبّ بطولة نادرة. لا أستبعد أنّي بعد أن أُلقي إليك بجدائلي من شرفة القصر، فتتسلّق عليها وتصعد إلى غرفتي، لنكتشف العشق، كما كنتَ تقول لي.. لا أستبعد أن تغادرني إلى مقبرة أجدادي، لتقصّ عليهم ما حدث بيننا كي تهزمهم. حسنًا، لن أقول لك الحقيقة الكاملة، ولا من أكون. أنا إيمان، من قرية في صعدة، أقصّ عليك قصّة قريتي. أرجع إلى كتبك التي درست فيها فلسفة الحبّ المحرّم. تستطيع أن تنظر إلى مستويات أخرى لا تفطن لها تلك الكتب في العادة. اكتشف فتاة فقيرة تصلح للعشق. ستكون بطلاً حقيقيًّا. ستنتصر حبيبتك على كلّ الاحتقار الذي سينزل بها فجأة، أمّا أنت فستتحدّث عنك نساء صنعاء كلّهنّ:

«يا له من بطل نبيل، كتب عن الغرام والحبّ إلى أن وجد معشوقته نصف عارية، تتسوّل الخبز لتطعم أبًا مشلولاً وأمًّا مصابة بالعمى».

حتى أنا، أكنتُ هاشميّةً أم لا، سأتحدّث إلى صديقاتي عن الفارس النبيل الذي يا ليته كان حبيبًا لأيّ منّا، إلاّ أنّه قرّر أن لا يكون حبيبًا وحسب، بل بطلاً خالصًا. أنا لستُ هاشميّة، حتى لو كنتُ بالفعل هاشميّة. هذا الجزء ليس له علاقة بالقصّة التي أرويها لك.

يبدو أنّي قطعتُ حكايتك التي ترويها كما قطعت أنت حبل أفكاري. وعندما قلت لك، أكثر من مرّة، إنّك كلّ تاريخي، وإنّي نسيت كلّ شيء قبلك، لم أكن أبيع نفسي جاسوسة لك حتى تدخل مكّة وتسيطر على أمّ القرى، كما فلسفتَ الحبّ في رسالتك الأخيرة.

تعرف جيّدًا أنّ هيثكليف شخصيّة محيّرة: تحبّه في أوّل الحكاية، تحتقره في منتصفها، ثم تبكي عليه قبل أن يموت. خاصّة عندما يذهب إلى قبر كاترين، يحفره في الليل، ثم يحتضن عظام حبيبته المرصوصة في كفن أبيض.

حتى زينب، وهي لا تستنتج أشياء ذات قيمة من مشاهدة الأفلام، قالت: أحببت هيثكليف واحتقرته، وأشفقت عليه.

لو استمرّت مناوشاتنا الجانبيّة بهذه الطريقة ستنهار الرواية. أرجوك.

مرّة أخرى، يؤسفني أن أورد هذا الجزء من القصّة بعد حديثك عن القلب المحرّم. تعالَ، اكتشف معي قلبًا مات وحيدًا مثل ذئب، كان قلبًا محرّمًا، لكن ليس على طريقتك.

بعد الحرب الخامسة، مرض أبي. صحا من نومه ليصلّي الفجر، فأحسّ بألم في صدره. كان الألم يزوره من وقت إلى آخر، لكنّ الأمر ساء في الأشهر الأخيرة، فأصبح يشتكي من ألم في صدره مع أدنى درجات المجهود. في ذلك الصباح كان الألم غريبًا وقاسيًا ومرعبًا. رأينا علاماته كلّها. قاوم والدي الألم، وذهب إلى المسجد. في العادة يمكث أبي في المسجد بعد الصلاة حتى قبل الشروق. ما إن يصل إلى البيت حتى يجد كلّ شيء جاهزًا: الخبز الساخن، الشاي بالهيل والقرنفل، والفاصوليا المطبوخة بالبهارات، والسحاوق، وكوبًا من اللبن الدافئ. نفطر معًا، ونتبادل بعض الأحاديث أثناء الإفطار. في الأوّل كانت أحاديثنا حول القرية. في طفولتي كانت الأحاديث التي يتبادلها أبي وأمّي أثناء الأكل، الإفطار أو الغداء، تلخّص أحداث القرية كلّها. أثناء العشاء يكون الأمر مختلفًا. فأبي يصبح معكّر المزاج، متوتّرًا، قليل الصبر، لا يطيق سماع شيء سوى الجمل القصيرة العاديّة. القات يفعل به كلّ ذلك. «لعنة الله على القات» لطالما ردّدت أمّي هذه الجملة وهي تحضّر العشاء في المطبخ فيما لو سمعت صوت أبي عاليًا، يصرخ على حسن أو على واحدة منّا. تتوتّر أمّي وتفقد أعصابها بسرعة، وربّما سقطت الأواني من يدها وانكسرت. فليس نادرًا أن يكون عشاؤنا متوتّرًا، نتمنّى أن نفرغ منه بأسرع وقت ممكن. بخلاف الفطور، الذي يكون فاتحة يوم رائعة. أبي الذي نتناول معه العشاء غير أبي الذي يفطر معنا كلّ يوم. شخصيّتان مختلفتان لرجل واحد. كلّ فتاة في القرية، من اللاتي تربطني بهنّ علاقة جيّدة، لديها الملاحظة نفسها. غير أنّنا لا نتناول

العشاء معًا على الدوام، كما نفعل مع الإفطار. لا يحدث ذلك كثيرًا لأنّ أبي في أوقات كثيرة يفضّل أن يطيل جلسة القات حتى منتصف الليل. نكون نحن قد تناولنا عشاءنا لوحدنا، وتبادلنا أنا وعبير بعض التعليقات الساخرة حول حسن، الذي لا يخزّن القات كثيرًا، ولا ينفعل بسرعة. لا تحدث قضايا طلاق كثيرة في قريتنا. الحالات القليلة التي سمعت عنها بدأت أحداثها، وهذه رواية مشتركة بين كثير من الأسر، وقت جلوس العائلة على مائدة العشاء. في ذلك الصباح تبادل حسن الحديث مع أبي بينما نتبرّع نحن بالضحك، نفعل ذلك في العادة بحسب الطلب عندما يتوقّعون منّا أن نضحك. أنا وأختي وأمّي.

عاد أبي من المسجد. كان الزمن قبل الحرب السادسة بثلاثة أشهُر.. في واحد من صباحات تلك الأيّام، جهزت أمّي وشقيقتي مائدة الإفطار؛ أمّا أنا فكنتُ قد قاطعت جلساتهم منذ أيّام لسبب كبير سأقصّه عليك فيما بعد. أبي رجل لا يعترف بالهزيمة، ولا بالألم. أظنّ أنّه كان يذهب إلى مكان ما من وقت لآخر ليعترف بهزائمه، لكن ليس أمامنا. وربّما في مكان ما أيضًا كان يبكي من الألم، لكن ليس أمام أمّي، أو أمامي. كذلك موقفه مع الخوف. لا شكّ أنّ أبي كان رجلاً يخاف لسبب أو آخر، غير أنّي لم أره قطّ خائفًا. وعندما بدأ الطيران الحربي في التحليق فوق القرية للمرّة الأولى، المرّة التي نشرت الرعب من أعلى الجبل حتى الوديان، قال أبي إن كلّ شيء سيكون على ما يرام. لطالما قال أبي إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام! لا نتذكّر أنّ خلاف توقّعاته قد حدث، ليس لأنّه كان يرى الوقائع قبل حدوثها، بل لأنّنا لم نكن نهتمّ بما سيحدث بعد ذلك ما دام أبي قد قال إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. عندما وافق على أن يذهب حسن إلى الحرب الثالثة، قال لنا:

«حسن شجاع، وعمره طويل».

لم نشكّ للحظة واحدة أنّ عُمرَ حسن يمكن أن لا يكون طويلاً. أصبحنا نخاف من الحرب ليس لأنّها ستقتل حسن، بل لأنّه سيغيب عنّا لأشهُر. عندما أقول «نحن» فأنا

أقصد نفسي وشقيقتي. أمّا أمّي فقد صرخت بوجه أبي وهو يعلّق على مشهد الطائرات التي تضرب أهدافًا في الجبال البعيدة المواجهة لجبلنا:

«لا، كلّ شيء لن يكون على ما يُرام، سيمرّون علينا من قرية إلى أخرى».

سخر منها أبي:

وماذا سيجدون لدينا ليقصفوه بطيرانهم؟

قالت له وهي تبتسم ابتسامة مرّة وتشير بإصبعها إلى مكان بعيد:

هاه؟ وماذا يوجد هناك ليقصفوه بالطائرات؟

أجابها بثقة أو بشكّ، لا أدري:

«مجاهدون. رأوا مجاهدين فقصفوهم بالطيران. هكذا هي الحرب».

ردّت عليه وهي تهبط الدرج إلى الأسفل، بينما كان واقفًا بباب السقف يتأمّل الدخان المتصاعد من البعيد:

«مجاهدون؟ أليست قريتنا مليئة بالمجاهدين؟ ألم تجعل ابنك حسن مجاهدًا مثلهم؟ ما يجدونه هناك سيجدونه هنا».

لا يبدو أنّه كان يأبه لما تقوله، أو أنّه سمع كلمة واحدة ممّا قالته.

في ذلك الصباح عاد أبي من المسجد، كان الألم ينهش وجهه، قالت لي أختي. تماسك كي يخفي وجعه. جلس على المائدة، لم ينطق بكلمة كما كان يفعل في العادة. تناول كوب الشاي، شرب منه رشفة. بدا كأنّه يتذوّقه لأوّل مرّة، قالت أمّي. فجأة صرخ بصوت مرتفع كأنّه وحش. استدار عن المائدة وتقيّأ. خرجتُ من غرفتي مفزوعة. كان منحنيًا مغمض العينين كما لو كان يستمع لأشياء في داخله. أمّي جاثية أمامه تمسك بكتفه ورأسه وتعيذه من الشيطان. أختي فاقدة الحيلة، مرتبكة، تمسح القيء بخرقة ثياب، وعيناها على وجه أبي.

تقيّأ للمرّة الثانية.

صرخ. جاء حسن مسرعًا، كان في غرفته التي على السطح. للحظات لم يدرِ ما ينبغي عليه فعله. صرخت به أمّي، لكنّه كان مشتّتًا ومرتبكًا. قالت له: «بسرعة، نادِ السيّد، بسرعة».

تقصد والد صفيّة، بالطبع.

ظلّ أبي يتلوّى على نحو مفزع. رأيته خائفًا لأوّل مرّة، وكانت الدموع تسيل على خّديه أخيرًا. كان بطني منتفخًا، ولم تكن حركتي سريعة بما يكفي. في غضون نصف ساعة كانت الشخصيّات الأكثر أهمّيّة في القرية تقف في ديوان أبي، إلى جواره. وضعوا كمّادات على جبينه. أمّا المبجّل السيّد فوضع كفّه على صدر أبي وذهب يقرأ عليه الأوراد والآيات كما يفعل مع الممسوسين والمرضى. عوّذه بأئمة آل البيت جميعهم، وبآل البيت، وبالنبي محمّد. لم نتمكّن من الدخول، نحن النساء. في السابق كنت أعتقد أنّ ما يفعله والد صفيّة مع المرضى لا طائل منه، فهم في الأخير يموتون، ونحن لا نجرؤ على القول إنّ ما فعله لم يؤثّر على المرض ولم يأتِ بنتيجة! هذه المرّة اعتصمت بنفسي في أعماقي وهمستُ بألم:

«تماسكي يا إيمان، استعيدي يقينك، هذه المرّة سينفع، هذه المرّة سيحقّق نتيجة.. هيّا اقرأ عليه أرجوك. أخرج السرّ الذي يجري في دمك، لأجلنا، أرجوك».

كان الباب مواربًا، باب الديوان، وكنت أنظر إلى الداخل من فوق كتفيْ شقيقتي.

هدأ ألم أبي قليلاً. قال السيّد المبجّل إنّها روح شرّيرة أصابته، أو «السقعة». لم أكن في وضع نفسي يسمح لي بفهم ماذا يمكن أن تعني هذه السقعة. قال حسن إنّ أبي فتح عينيه على اتّساعهما فجأة، نظر إلى السطح، ثم فقد وعيه. قلبوه يمينًا وشمالاً، قرأوا عليه. رشّوا عليه الماء البارد، صفعه السيّد في وجهه عشرات الصفعات. كان السيّد يهزّه بقوّة، ويصرخ فيه، ثم يصفعه. نعم عشرات الصفعات، لكنّه لم يعُد.

صرخ حسن:

«انقلوه إلى صعدة، هيّا».

ردّ عليه السيّد إنّه لا توجد سيّارات نقل متاحة. فهناك بضع سيّارات في الموقف، على بعد نصف ساعة على الأقدام، كما لا يوجد بنزين في صعدة كلّها بسبب الحرب. «رشّوا عليه الماء مزيدًا من الماء البارد، أظنّه محمومًا، الحمّى من لفح جهنّم، ماء بارد، هيّا، أطفئوها بالماء».. كان صوت السيّد مرتبكًا فأفزعنا أكثر وأكثر. «هاتوا مرهم، ادهنوا صدره بمرهم».. كان صوت السيّد هو الصوت الوحيد الذي يجلجل في الديوان، فقد هدأ صوت أبي.

دهنوا صدره، وعنقه. رشّوه بالماء البارد، صرخوا فيه. قلبوه. صفعوه بكلّ الأكفّ. صفعوه كثيرًا، وكانت المرّة الوحيدة التي صفع فيها رجلٌ من القرية وجه أبي. كان حسن يصرخ: «افعلوا شيئًا».

أمسك به بعض الرجال وقيّدوا حركته، محاولين تهدئته، وارتفعت الأصوات من الداخل، من ناحيتنا نحن.

كان كلّ شيء قد انتهى. فالمرّة الوحيدة التي خاف فيها أبي وتألّم وبكى كانت هي المرّة التي مات فيها أيضًا. لم يكن كلّ شيء على ما يُرام، كما قالت له أمّي قبل ذلك بفترة قصيرة.

دُفن أبي في مقبرة القرية. استمرّت طقوس العزاء عشرة أيّام. كان علينا أن نطعم الزوّار باللحم والخبز، ونجهّز لهم الماء والقهوة. ساعدتنا جاراتنا، بالطبع. أمّا أنا فكانت مأساتي مضاعفة. لعشرة أيّام كان بيتنا مسرحًا تتبادل فيها النساء عبارات المواساة والعزاء والشفقة في العلن، وأيضًا كلمات أخرى في السرّ. كنّ يقلبن عيونهنّ مثل النسور يبحثن عن إيمان التي انتفخ بطنُها.

«الله أعلم، سمعت أنّها كانت على علاقة بالمدرّس عبد الحافظ» همست امرأة لأخرى في الديوان. نسيت النساء السبب الذي جئن لأجله، وانشغلن بأمر آخر: بطن إيمان الذي يكبر لسبب غير معروف. بالنسبة لنساء القرية كان السبب معروفًا:

«لا بدّ أنّ رجلاً فعل بها». كانت الأحاديث كلّها تدور

حول هويّة هذا الرجل الفاعل.

«الملعونة، قتلت أباها، لم يستحمل العار» أسرّت امرأة لأخرى إلى يسارها.

ردّت عليها:

«كان عليه أن يذبحها ليشفي غليله، لا أن ينفجر ويموت».

كانت أمّي تلمح الأحاديث على العيون، فتشتعل الحرائق والبراكين في أعماقها. لوهلة نسيت أمّي مصابها في أبي ودخلت في معاناة جديدة بسبب مصابها بي أنا. أنا التي انتفخ بطنُها، أو التي حملت سفاحًا كما يقولون.

شيء غريب يجري في خاطري الآن، وأنا أكتب لك هذه الرسالة. عندما أتذكّر الطريقة التي كانت تُحكى بها قصّتي، وتُتداول بين النساء والفتيات، ألمح أمرًا غريبًا. لم يكنّ يتطهّرن بسرد هذه القصّة وحسب، بل أيضًا يتلذّذن. بعضهنّ، كما كان يصلني من وقت إلى آخر، كنّ يقضين لقاءات كاملة في الحديث عن جريمتي التي ارتكبتها مع رجل غريب. كنّ يسردنها بالتفصيل. اخترعنَ قصّة كاملة، ليست قصّة اجتماعيّة وحسب بل قصّة جنسيّة أيضًا. لم يعد الدين يأخذ حيّزًا في القصّة أكثر من الحيّز الذي يأخذه الفراش. كلّ امرأتين كانتا ترويان القصّة بطريقة خاصّة بهما. كانتا تصنعان قصة وتشاهدانها معًا في مخيّلتيهما. مع مرور الأيّام السريعة، أصبحت قصّتي نفسها تُروى في السرّ، كأنّهنّ يتداولن مادّة محرّمة، لذيذة. قيل لي في البدء إنّهنّ يشعرن بالاشمئزاز لمجرّد تذكّر اسمي. لكنّ القصص التي كانت تصلني، تجمعها شقيقتي بطريقتها الخاصّة، لا أجد فيها أثرًا للاشمئزاز، بل للنشوة. لو أغمضت أيّ امرأة، من صنّاع تلك الحكايات، عينيّها وتنفّست بعمق، سترى المدرّس عبد الحافظ بطلاً ينتظرها خلف التلّ، أو بين الأشجار في الطريق إلى قرية آل سالم. وبدلاً من أن تحتقرني وتبصق في وجهه ستجد نفسها تهوي في عالمه. لقد أنشأنَ قصّة ليهدمنَ بها الأسوار التي حبستهنّ منذ آلاف السنين في ذلك الجبل، لا ليغتلنَ إيمان، إيمان اليتيمة، كما كنت أعتقد. يا إلٰهي.

لم تكن خطيئتي، كانت خطيئة القرية كلّها. هذه الفكرة جعلتني أفكّر لوهلة: ماذا لو منحنا هذه الرواية اسم «جبل الخطيئة». لكنّي تراجعتُ عنها. فأنا أتحدّث عن إيمان، سأتحدّث فقط عن إيمان.

حتى صفيّة، التي كانت تحضر إلى العزاء بصحبة أمّها، لم تسأل شقيقتي عنّي. كنتُ في غرفتي، لا أجرؤ على الخروج، وليس لديّ إجابات عن أيّ سؤال. كلّ ما أعرفه هو أنّ بطني يكبر كلّ صباح. أصحو من النوم فأجده قد كبر شيئًا قليلاً عن البارحة. ما الذي يجري في أعماقي؟ لا أعرف. كان أبي قد لمح الأمر لأوّل مرّة قبل شهر من وفاته. أسرّ إليه أحد أصدقائه بما يتحدّث عنه الناس، فجاء ليتأكّد بنفسه. كان يراني لدقائق في البيت، وكنت أتعمّد أن أدعه يراني وأنا جالسة، ولا أقف إلاّ عندما أتأكّد أنّ عينيه بعيدتان عنّي. صفعني بقوّة حتى سال الدم من فمي. أقسمت له بالله أنّي لا أعرف، وأنّي أشعر بألم شديد في بطني. قلت له إنّي مريضة، وتحدّيته أن يأخذني إلى صنعاء. لم يفعل، فهو لم يعد يدري ماذا بمقدوره أن يفعل. أمام تحدّيّ له وبكائي وإلحاح أمّي على ضرورة السفر للكشف والعلاج، إقتنع بنصف حكايتي. هكذا بدا لي الأمر.

في أحيان أخرى كنت أعتقد أنّه اقتنع بما أقوله. أمّا أمّي فدافعت عنّي أمامه على طريقتها.

«هل سألت نفسك قبل أن تتّهم بنتك بالفاحشة مع من ارتكبتها؟ أين هم الشبّان الذين في القرية؟ قل لي؟ من بقي منهم؟ هاه؟».

دائمًا ما تحمّل أمّي الحروب كلّ الآفات، وتنتصر في مواقفها. قال لها كلامًا متلعثمًا فهمتُ منه أنّه يشكّ بالمدرّس عبد الحافظ، الذي أصبح وهّابيًّا وبنى منزلاً في قرية اليهود. لكن أمّي سرعان ما طردت الفكرة من رأس أبي:

«ابنتك تعاني من وجع وانتفاخ منذ ستّة أشهر، والمدرّس لم يرجع من سفره منذ عام. حتى عندما عاد لم يدخل هذه القرية. ألم تطردوه من القرية لأنّه أصبح وهّابيًّا

ملعونًا، فذهب إلى اليهود».

كنت سعيدة بقوّة أمّي. كانت تكتسب القوّة فجأة عندما تستند إلى كراهيّتها للحرب ولأنصار الحرب. خارج هذه المواضيع كانت دائمًا ضعيفة، وقليلة الحيلة.

انتهى العزاء في اليوم العاشر. وقفت القرية كلّها مع أمّي. أمّا أنا فلم أرَ أمّي في حياتها تكره القرية كمثل تلك الأيّام، وتكره زوّارها.

«حتى صديقتكِ صفيّة، ما أحقرها». قالت لي أمّي.

لم أردّ عليها. فقط كنتُ أبكي.

«لو شئتِ لفضحت علاقتها بالوهّابي الذي قتلوه وهو عائد على قدميه من مدرسة الحديث».

حملقتُ فيها:

«قتلوه؟ من قال لك؟».

ــــ أنتِ لا تعرفين ما حدث؟ لا يهمّ الآن. المهمّ أنّي كنتُ أعرف علاقة صفيّة به، لكنّي احترامًا لكِ لم أفشِ السرّ. انظري ماذا تفعل بكِ. هي التي تروّج لقصّتك مع المدرّس الوهّابي.

«لا أريد أن أعرف شيئًا، اتركيني لوحدي، أرجوكِ».

استجابت أمّي لطلبي، وغادرت الغرفة. كان الوقت ليلاً. أطفأت الفانوس. شربت رشفة من الشاي الذي أعدّته شقيقتي عبير. هذه هي المرّة الأولى التي أذكر فيها اسم شقيقتي. كان باردًا كقلب القرية، وأبعد. وضعت رأسي على حافّة النافذة، وسرحت في الظلام. كان الليل يتحرّك في الجبل والوادي. تخيّلت ذلك الشيء يكبر في أعماقي. ربّما كان وحشًا كبيرًا، سيفجّر بطني في يومٍ ما ويخرج ليبتلع القرية. كان الليلُ هادئًا، لا طائرات في الجوّ، ولا أصوات مدافع خلف الجبل.

كان أبي يملأ الوادي كلّه، والجبل. يملأ كلّ الظلام الممتدّ أمامي. أحسست بألم يعتصر أعماقي. لكن أبي، الذي كان يغطّي كلّ شيء في تلك اللحظة، ابتسم لي من بعيد:

«إيمان، لا تخافي، كلّ شيء سيكون على ما يرام».

انهمرت الدموع حتى بلّلت صدري. ابتسمت له.

ـــ نعم، سيكون كلّ شيء على ما يرام. والله إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام!

كان مبتسمًا وخجولاً. بدا كأنّه اطمأنّ لكلامي أكثر ممّا منحني هو الطمأنينة. لم أره مؤمنًا بطهارة كلماتي ونقائها مثل تلك اللحظات. غرقتُ في سريري، الحزن والقرية القاسية حولي.

وغاب أبي في قبره، يحيطه الألم والحرب من كلّ جوانبه.

إيمان

١٧ / فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

القرية لم تقتل أباك، قتله التاريخ. الجبل لم يسلبه الحياة، بل حجبها عنه. مزّقتني رسالتكِ الأخيرة. قذفتني قصّتكِ إلى متاهة مرعبة. كان بورخيس يقف على كتفي متجهّمًا، وبيأس يقول لي:

ألم أخبرك من قبل؟ «لا يوجد تلّان متشابهان، رغم أنّ تلال الأرض كلّها متشابهة».

هكذا قالت لي قصّة رحيل والدِكِ. أعني لمست الغريب الذي بداخلي، الذي تاه لسنين طويلة ما بين التلّ والسهل. ستقرأ الفتيات قصّتكِ. ربّما يهتفن:

«يا إلٰهي، سهولنا متشابهة وتلالنا مختلفة».

الآن أتخيّلك تغادرين القرية على طريقة الأنبياء المهزومين. تصعدين الجبال إلى صنعاء تجرّين معك بطنَك الكبير، كما فعل المسيح وهو يتسلّق الجبل، يحمل صليبه.

فهمت رسالتك الأولى عن شمس الله التي تغيب عن مدينة إلى الأبد. ماذا فعل ألبرينغو يا إيمان؟ شرب دم السلحفاة ليعيش؟ شربت نساء القرية دمَك ليشعرن بوجودهنّ، ليكتشفن ضمائرهنّ. لا بدّ من العثور على مذنبين ليصير للإيمان معنى. إذا تعذّر العثور عليهم فلا بدّ من اختراعهم. مهما قدّموا من حجج تكشف براءتهم، لا يهمّ. فهم مذنبون ليس لأنّهم كذلك بل لأنّنا نريد أن نراهم مذنبين. لا شكّ أنّ نساء القرية قاتلن باستماتة لتأكيد قصّة خطيئتك، ليس دفاعًا عن الله بل عن أنفسهنّ. شربن دمَك، وشربت الحرب دماءهنّ لتشعر بوجودها أيضًا.

كانت الحرب نفسها تسقط في الجروف والمنحدرات، لا يشرب دمها أحد.

وأنت تغادرين القرية ربّما أبصرت تلك الحرب نائمة على الطرقات، أو مستيقظة على الأكتاف والملامح. كان ضحاياها الفقراء من الجانبين، والأكثر إيمانًا في الطرفين. لو تأخّرت الحرب كثيرًا لنجا والدُك من جلطة القلب. لو أنّها لم تحدث أبدًا لعاش والدك حتى يقرأ هذه الرواية. كانت الرواية ستتحدّث فقط عن رودابه والأمير زال، عن

الجميلة التي تلقي جدائلها من الشرفة ليصعد عليها العاشق. لكنّه ترك كلّ شيء للعدم، واسترخى على قمّة جبل ونام وحيدًا. وتركك تروين قصّة مرّة، ما كان ينبغي لذات الجدائل الطويلة أن تعيشها. لو أنّك زرتِ قبره الآن ستجدين صورة أخرى من صور الحرب.

كلّ الذين دفنوا إلى جواره نالوا لقب شهيد، لأنّهم خاضوا الحرب وقتلتهم. أبوك الشخص الوحيد، ربّما، الذي يسمّى ميّتًا، ولا يحظى بلقب. فهو لم يشترك في معركة، أي لم يقتل أحدًا.

لا أفلسف الموت أمامك، ولا أقلّل من كارثيّة ما حدث لكِ.

مات والدك، ولم يكن من المفترض أن يموت. مات، وكان يمكن أن يعيش طويلاً. لا علاقة للأقدار بما حدث له. مات لأنّه لم يجد المساعدة المناسبة في الوقت المناسب. الآخرون الذين قتلتهم الحرب ماتوا أيضًا. لم يكن ذلك قدرهم، كانت الحرب هي التي قتلتهم.

لو أنّها لم تقتلهم لعاشوا، لو أنّ والدك حصل على المساعدة الطبّيّة المناسبة لعاش طويلاً. لو، لو، لو. يمكنني أن أكتب «لو» بلا نهاية. كلّ شيء في بلدك، وبلدي، يقع خلف لو.

قالت العرب إنّ «لو» حرف امتناع لامتناع، أيّ امتناع جواب الشرط لامتناع فعله. «لو» التي قيل إنّها كلمة الشيطان المفضّلة هي الحقيقة التاريخيّة لبلدتنا. إنّها لدينا حرف امتناع لحضور، امتناع المستقبل لحضور الماضي.

لو كانت قريتك استوردت حكيمًا لفعل ما بوسعه لأجل حياة والدك.

لكنّ السيّد المبجّل أقنع القرية لعشرات السنين أنّ ذلك ليس أمرًا ذا بال، فهو يحفظ الأدعية والسور التي تكفي للشفاء. عندما يموت السيّد المبجّل في قريتك لن يجد أحدًا يقرأ عليه التعاويذ والآيات. سيفسّر موته، لأوّل مرّة، على هذه الطريقة:

«مات لأنّ أحدًا لم يقرأ عليه الآيات».

وفي لاوعيهم الجماعي لن يتذكّروا كلّ أولئك الذين ماتوا بعد أن قرأ عليهم أقوى ما يحفظه من آيات الشفاء.

كلّ ما يحدث هو أنّ الماضي يفترس كلّ شيء في القرية والمدينة، يا إيمان.

م. غ

١٨ / فبراير ٢٠١٤

عزيزي الكاتب،

تأكّدت أمّي أنّ كلّ شيء لن يكون على ما يُرام. تركها أبي بعد حياة طويلة. انتهت أيّام العزاء وكانت ثقيلة على أمّي، بل علينا كلّنا. لم يكن علينا أن نواجه تلك الطعنات الحادّة التي يسمّونها نظرات المواساة أو الشفقة. تجاهلناها بعد ذلك. فهناك شيء آخر، إنّه بطني الذي يكبر شيئًا فشيئًا بلا تفسير. صدّقت أمّي روايتي، لكنّها سرعان ما خضعت للهواجس.

ـــ إيمان، صارحيني.

كنتُ في غرفتي مستلقية على سريري، أقلّب في ورقة سقطت من الرفّ الذي فوق رأسي مباشرة. ورقة من واحد من مجلّدات مكتبة جدّي. لم أكترث لما تقوله أمّي. في أعماقي حزن لا قرار له، فقد غطّى بطني على فاجعة غياب أبي. أمّي التي كانت تقف أمامي تلك الساعة لم تبدُ امرأة فُجعت بغياب زوجها ورفيق حياتها. سلقتها ألسنة القرية فنسيت كلّ شيء إلاّ بطني.

الموت ولا الفضيحة، قالت أمّي.

لم أعلّق على كلامها. فقدت الرغبة في استخدام الكلمات. افعلي ما يحلو لكِ، افعلوا بي ما تريدون، قلتُ لها.

ـــ أنتِ حامل يا إيمان، لماذا لا تفهمين؟ هل فهمتِ الفضيحة الآن؟ أنت حاااااامل.

كانت واقفة في وسط الغرفة.

عندما نطقت كلمة حامل استدارت بعيدة عنّي. واصلتُ تقليب الورقة بين يديّ، مدّعية أنّي أقرأ ما فيها بالفعل. لم يعد لديّ كلام جديد يمكن أن أقوله.

على مدى ثلاثة إلى أربعة أشهر كنت أتلقّى التهديد بالقتل من أبي ومن أمّي. وما إن أنفجر بالبكاء، ثم الغضب، ثم التحدّي حتى تهدأ الموجة. ذات مرّة ارتديت ملابسي، بما في ذلك عباءتي. دخلت إلى ديوان أبي، كان حسن يخزّن القات إلى جواره، وأمّي تجلس على بعد بضع خطوات منهما. وقفت بالباب، كان الديوان مضاءً بفانوسين. صرختُ

فيهم:

«هيّا نسافر إلى صنعاء، الآن. خذوني إلى صنعاء. وإذا ثبت أنّي حامل اقتلوني، أمّا إذا كنت مريضة فأنا بحاجة إلى علاج. الآن».

كنتُ أصرخ مثل ساحرة:

«الآن، الآآآآن».

نهض حسن من مكانه، اقترب منّي، واحتضنني. حاول تهدئتي. لم تتحرّك أمّي من مكانها. لا أدري كيف تفاعل أبي مع تلك اللحظة، فأنا لم أكن أنظر إليه. جثوت على ركبتيّ، ثم غرقت في البكاء. لم تكن تلك الليلة استثناء. لذا عندما وقفت أمّي أمامي، في غرفتي، ترجوني أن أصارحها كنتُ قد فقدت الإحساس بالزمن، والقرية، وحتى الألم. لحظات، ثم تغادر أمّي الغرفة. لا أدري لماذا خطر على بالي الوهّابيّان.

المدرّس الذي كان على مذهبنا قبل أن يغادر إلى السعوديّة، ثم يصبح جارًا لليهود. والوهّابي الشابّ الذي سلب لبّ صفيّة، وكان يلتقيها في اصطبل المواشي أثناء صلاة العشاء.

ابتسمتُ بمرارة. تعرف، كأنّي كنتُ أجرّ ابتسامتي بالدلاء من قاع الوادي.

كنتُ أحاول أن أتذكّر أيّ أمر لأبتسِم. لطالما تحرّشتُ بصفيّة: فتاة شريفة تقع في غرام وهّابي. كانت تضربني على كتفي، وأحيانًا تقرصني في خدّي وهي تقول:

«ستدور الأيّام وترزقين بوهّابي مثله. من يسخر من وهّابي يسلّطه الله عليه».

يا للزمن!

ها هي صفيّة نفسها تقود الإشاعة حول علاقتي بالمدرّس الذي لم أره منذ غادر المسجد. آمن بي حسن، وصدّقني أبي قبل أن يموت، وهذا يكفي.

نهضتُ، رفعت ذبالة الفانوس فامتلأت غرفتي بالنور. ناديت على أمّي فجاءتني في لمح البصر. طلبتُ منها أن

تجلس فاتّخذت مكانًا على طرف فراشي. بدت متوتّرة، تترقّب ما سيخرج من بين شفتيَّ، ربّما سأكشف السرّ الأعظم وأحلّ اللغز. تمدّدت على فراشي، ووضعت رأسي في حجرها. لم أنطق بكلمة واحدة، ولا أمّي. بعد لحظات وضعت أمّي كفّها على رأسي. قلتُ لها: «داعبي خصلات شعري كما كنتِ تفعلين».

سمعتُ ابتسامتها المختنقة. ساد صمت عميق. بعد برهة قالت: لم تعودي طفلة يا إيمان.

ـــ لا زلتُ طفلة، أنت تعرفين ذلك. أنا إيمان، يا أمّي.

داعبت خصلاتي. سألتها: رأيت الخيول؟

انحنت على رأسي وقبّلتني. أحسست بقطرات دافئة تمرق عبر خصلاتي حتى فروة رأسي. لا بدّ أنّها السيّدة العظيمة أمّي تبكي، سأنام إذن. لم أشعر بشيء بعد ذلك حتى الصباح.

كانت خصلاتي تسيل على حجرها. لم تحدّثني أمّي عن شَعري منذ الحرب الأولى. الحرب التي ملأتنا بالحزن والغمّ والخوف، ثم تكرّرت بعد ذلك أكثر من الأمطار ومواسم الرمّان.

سأختصر لك ما فعلته الحروب بقريتنا:

كنّا نرى المدى مفتوحًا حتى آخر جبل وما بعده. وكان بمقدورنا تخيّل كلّ شيء، وفهم كلّ شيء. لم يكن لدينا الكثير من المعرفة ولا الكتب، كنّا نمتلك الخيال، وكان يكفينا. أنزلت الحرب ستارة عظيمة سوداء حجبت عنّا كلّ شيء. ما إن تطلّ المرأة من شبّاك بيتها القروي حتى ترى ظلامًا لا آخر له. أصبحت الستارة تملأ النهار والليل. قريتنا، وهي واحدة من مئات القرى المتناثرة على جبال صعدة، عملت كصندوق لتلك الحروب. زوّدناها بالمقاتلين وكانت تعيدهم إلينا على هيئة جنائز. كانت تعتصرهم كما فعلت أيضًا مع فُكَهاتِنا وأحلامنا. مرّت الأيّام بعد موت أبي سريعًا. لم يجفّ تراب قبره حتى قرعت الحرب طبولها من جديد واقتربت أصوات الانفجارات من القرية. قرّر حسن أن لا يذهب إلى الحرب هذه المرّة. عاتبه المبجّل والد صفيّة،

فردّ عليه حسن أنّ عليه أن يهتمّ بأمّه وأختيه. قال له أيضًا: لديّ أخت مريضة في البيت. كان ذلك في جلسة خاصّة في بيت السيّد استدعى إليها مجموعة من شباب القرية. حملق السيّد في عينيه: لديك أخت مريضة؟ أختك مريضة ولم تخبرني؟ قال حسن إنّه لم يرتبك، وأنّه ردّ عليه بثبات:

«نعم، أختي إيمان مريضة ونحن نفكّر بالسفر إلى صنعاء. ربّما كانت بحاجة إلى عمليّة جراحيّة».

تبادل الشبّان النظرات، أمّا السيّد فقد تلعثم وصرف عينيه عن وجه حسن. فإيمان، كما يعتقدون، ليست مريضة. إنّها مجرمة، حملت سفاحًا وتسبّبت في موت أبيها كمدًا. لهذا السبب لم تجدِ كلمات السيّد ولا آياته نفعًا مع أبيها. فقد أرادت مشيئة الله أن يموت أبوها كمدًا وحزنًا لكي تتعلّم كلّ فتاة الدرس. ذلك أنّ ساعة لذّة حرام يمكن أن تدمّر حياتها وتسرق منها أعزّ الناس إلى قلبها. لم يكن الشيخ مرتاحًا لخيار حسن. على العكس من ذلك، فقد شعر بالقلق، فحسن كان شابًّا شجاعًا. عمره طويل، كما قال أبي. لديه أصدقاء كثيرون من شباب القرية، خشي السيّد أن يتأثّروا بقراره الأخير فيخترعون الأعذار.

ــ حسنًا، لتسافر الآن، لا تتأخّر. سيرافقك أخي إلى صنعاء وعندما تستقرّ الأمور ستعودان معًا.

ــ هذا ما نفكّر فيه. يمكننا تدبّر الأمر لوحدنا من دون الحاجة لأن يتورّط شقيقك في تعب كهذا.

ــ لا عليك، نحن أبناء قرية واحدة. كان أبوك أكثر من صديق، من الواجب عليّ مساعدتكم.

قال حسن إنّ السيد المبجّل كان يصمت بين كلّ جملة وأخرى، ولم يكن ينظر مباشرة إلى وجه حسن.

«الحرب هذه المرّة مختلفة عن سابقاتها. إنّها تقريبًا في كلّ مكان». قال السيّد ليكسر الصمت الذي نشأ فجأة.

ــ «أعرف. هذه المرّة قال الملعون إنّه سيطبّق سياسة الأرض المحروقة»، قال حسن.

ــ لا تخف من هذا الجانب، سأرسل معك توصية

خاصّة لتعبر نقاط التفتيش التابعة لنا. بعد أن تجتاز آخر نقطة تفتيش، مزّق الرسالة ثم واصل طريقك. سيتبقّى القليل بين آخر نقطة لنا وبين وصولك إلى صنعاء، فلا تحمل همًّا.

ابتسم بثقة. مرّ بعينيه على عيون الشباب المتواجدين في ديوانه. أردف بثقة:

«صنعاء مدينة هاشميّة، منذ الأزل».

لم يسمع تعليقًا من أحد. لم يكونوا في الغالب يعرفون أين تقع صنعاء، ولا يأبهون بما إذا كانت صنعاء هاشميّة أو أمويّة. في الحقيقة، كما قالت أغلب الأمّهات، كان الأبناء يهرعون إلى السلاح ولا يفهم أحد ما الذي يجري خلف الجبل.

أحسّت أمّي بالفزع أوّل الأمر. قالت إنّها لا تأمن مكر السيّد. وأنّه ربّما سيوعز لأخيه أن يوصل حسن إلى واحدة من كتائب المجاهدين، أمّا إيمان فسيتخلّصون منها بطريقتهم لأنّها مجرمة. ناقشتُ أمّي بهدوء، وقفت عبير إلى جانبي، وكذلك حسن. شيء واحد فهمته من كلّ الرفض والبكاء الذي قدّمته أمّي: إنّها، رغم كلّ شيء، لا تستطيع أن تنام ليلة واحدة وأنا لستُ معها. كنتُ شمسها، وكانت الدم الذي يجري في جسدي. كلّ فتاة تستطيع أن تتحدّث عن أمّها بطريقة أفضل ممّا فعلتُ أنا، وأن تبالغ في وصف الوشائج التي تربطها بأمّها. لكن عندما تكون هذه الفتاة متّهمة بالخطيئة، وبطنها يشهد عليها، فقدت أباها للتوّ، وتعيش مع أمّها على قمّة جبل، تحيطها الحرب من كلّ جانب، فإنّ قصّتها لن تكون مجرّد كلمات.

دخلنا في نقاش طويل حول السفر: متى، كيف، مع من.. إلى آخر الأسئلة التي لا تنتهي. لا بدّ أن نسافر بأقرب وقت ممكن، قال حسن. قال أيضًا إنّه لن يكون له الخيار في أن يعتذر عن الاشتراك مجدّدًا في هذه الحرب.

— «اجلس في البيت، لن يرغموك على الذهاب لهذه الحرب». قالت له أمّي.

ـــ (وهو يقلّب بصره في الغرفة، لا يدري ما الذي عليه فعله) ليس لديّ الخيار.

شرد قليلاً.

عاد إلى تأمّله، كأنّه كان يحدّث نفسه:

«كم أمقت هذه الحرب من قلبي. نسافر مع أناس لا نعرفهم لنقتل أناسًا لا نعرفهم، وينتصر آخرون لا نعرفهم. حتى المهزومون لا نعرف منهم أحدًا. سألت نفسي ألف مرّة وأنا منبطح على بطني في الآكام والوديان: ما الذي سيحدث لو انهزمنا أو انتصرنا. في الحالتين سنعود إلى البيت، أو سنموت».

قاطعته أمّي:

هل سيذهب الشيخ إلى الحرب هذه المرّة، أم سيكتفي بالجلوس والانتظار؟

ـــ لا أدري. قال لنا البارحة ونحن في مجلسه إنّه سيلقي هذا الأسبوع، أي في الغد، خطبة الجمعة وسيقول كلامًا شديد الأهمّيّة.

ـــ الشيخ سيلقي خطبة الجمعة غدًا؟

ـــ هكذا قال لنا.

ـــ بالمايكرفون؟

ـــ بالمايكرفون. أحضروا بطّاريّة، لا أدري من أين، لهذا الغرض.

ـــ الآن فهمت. لم أسمع مايكرفون المسجد منذ فترة طويلة.

لا أتذكّر تعليقاتي أنا وعبير، لكنّنا قلنا كلامًا كثيرًا بالطبع.

«وماذا عن سفري» قاطعتهم. قال حسن إنّ خطبة السيّد ستحدّد غدًا كلّ شيء. بالمناسبة، أنا لم أخبرك حتى الآن أنّ السيّد المبجّل كان هو أيضًا شيخ القرية. حسنًا، لا بدّ وأنّك اكتشفت ذلك بنفسك. صباح اليوم التالي كانت هناك حركة غير عاديّة حول المسجد. استطعت أن ألمح ذلك من شبّاك ديوان أبي المطلّ على القرية. في ذلك الصباح

سمعتُ أكثر من مرّة انفجارات قويّة خلف الجبال البعيدة. لم أر دخانًا، ولا طائرات. أصبحتُ، فجأة، فتاة محايدة تشاهد ولا تنفعل. سيّان كلّ الذي سيحدث.

ها أنذا أجد نفسي امرأة مرجومة، منبوذة، تحتقرها العيون والألسن. امرأة في مثل وضعي وسنّي لم تكن تفعل سوى أن تنتظر العريس. تأمّلت نفسي كثيرًا. قرأت الكثير من الكتب، وامتلأ رأسي بقصص وحكايات ومعلومات عمرها مئات السنين. لا يعني ذلك بالنسبة للقرية شيئًا. لا يريدون أن يعرفوا جملة واحدة عن تلك الأشياء التي أعرفها ويجهلونها. لا يريدون اكتشاف الماضي، ولا التفكير في المستقبل. يعيشون فقط، لا أدري كيف يفكّرون، لكنّهم كانوا يعيشون، يعيشون بحماس أيضًا.

كنت أيضًا أنثى جميلة، مثل البدر، كما كانت عبير تقول لي. لكنّهم سرعان ما تخلّصوا منّي. كأنّهم كانوا ينتظرون مناسبة أو سببًا لذلك. فقدت القدرة على الفهم. قبل ذلك بسنوات عندما كنّا نذهب إلى مدرسة المسجد لتلقّي العلوم الدينيّة والقرآن كنتُ متميّزة، وكنتُ جميلة. ألم أخبرك عن خصلاتي الطويلة التي كانت تسقط من أعلى الجبل حتى الوادي؟ كانت صفيّة، ابنة الشيخ، تشعر بالغيرة منّي. تتملّقها كلّ الفتيات. لكن ما إن يبتدئ الدرس حتى تسكت هي وأتحدّث أنا. لكنّها كانت، لأسباب لم أكن أفهمها، شريفة ومتميّزة ولا يشبهها منّا أحد. كان هناك من فهم أنّي، وأنا طفلة، أحاول أن أخطف شرفها وتميّزها. تحرّشت بي واحدة من صديقاتها، وبلا مقدّمات انفعلت في وجهي:

«تريدين أن تقارني نفسك بزينب؟ ولا في أحلامك!! فمهما حفظتِ من الكتب ستبقين مجرّد ممسحة، ولو غسلوها عشرين مرّة! القبيلي قبيلي والسيّد سيّد إلى يوم القيامة».

أدري أنّك ستتجاهل كلّ الرسالة وستفتح عينيك على هذه الجملة. حسنًا أنا لم أكن فتاة هاشميّة. وكما قلتُ لك: في قريتي لم يكن بمقدور المرء أن يكون هاشميًّا أو يهوديًّا. هل كفّتْ خصلاتي عن سحرها عندما عرفت الآن

أنّي فتاة عاديّة، طردوها من قريتها لأنّها حملت سفاحًا وأنجبت ورمًا؟

انتصف النهار.

عاد المايكرفون للحياة. أحسست ببهجة غريبة. كأنّنا في صباح عيد رمضان. تأمّلت القرية من ديوان أبي. رأيت الأطفال والنساء يصعدون إلى سطوح منازلهم، ويختفون. غمرت البهجة قريتنا لولا شعورنا العميق، شعور كلّ واحد منّا، أنّ أمرًا ما وراء الأكمة. وأنّ هذا المايكرفون الذي عاد إلى القرية أخيرًا عاد مختلفًا، وغريبًا.

لكنّ البهجة بقيت حيّة، بهجة غريبة، عارمة، لا تعدنا بالحلوى ولا الألعاب الناريّة، بل بمزيد من الدخان. ربّما كنتُ الوحيدة التي قالت لنفسها:

«ومزيد من الجنائز».

لم يمضِ وقت طويل حتى أخذ السيّد المبجّل يتحدّث إلى قريتنا والقرى البعيدة. قال إنّ الله وعدنا بالنصر، لكنّه لم يتحدّث عن الذين وعدهم بالهزيمة. تخيّلت المصلّين وهم يتلقّون حديثه بالنشوة، يرون أنفسهم منتصرين ولم يفكّروا حتى بشكل أعدائهم.

كنتُ جالسة أمام الشبّاك، وكان الصوت يأتيني بكلّ وضوحه وقوّته. ملّت أمّي من كلامه، وصعدت إلى المطبخ. غادرت عبير الديوان، وانشغلت. بقيتُ في مكاني. خرج حسن من المنزل بعد انتهاء الخطبة الأولى. لا أدري لماذا تأخّر، ولا بماذا انشغل! حتى عندما عاد من المسجد كان يحاول ألاّ يتحدّث عن موضوع الخطبة. هل كان يهرب من الحديث عن الحرب والأعداء والنصر؟ لم يشترك الشيخ في حرب واحدة، لكن حسن خاض ثلاث حروب، وهو يعرف معناها وتفاصيلها أكثر من أيّ شخص آخر.

هكذا فكّرت:

دعاة كلّ حرب جديدة في قريتنا ليسوا في العادة من الذين خاضوا الحرب التي سبقتها.

كنت في التاسعة عشرة، وكان حسن في الواحد والعشرين. كنّا لا نزال في سنّ صغيرة أقلّ بكثير من

الأحداث التي هي جزء من حياتنا اليوميّة.

لا يزال صوت خطيب ذلك اليوم يرنّ في سمعي «كتب لهذا الدين أعداؤه في كلّ زمان ومكان، وكُتبَ لهذه الأمّة أن يبعث الله إليها من يحمي دينها ويذود عن حياضها». سكنني شعور بأنّ المصلّين ارتاحوا لجملة يذود عن حياضها. في قرية مثل قريتنا يستطيع الناس تخيّل الحرب إذا قيل لهم إنّها دفاع عن الحياض، والوديان والآبار، ولو على سبيل التشبيه. انتهت الخطبة، ولا أظنّ سوى أنّ كلّ شيء أصبح أكثر غموضًا من ذي قبل. أمرًا واحدًا فهمناه بفطرتنا، وهو أنّ علينا أن نبعث المزيد من حَمَلة السلاح.

بقيّة الخطبة كانت بليغة يصعب فهمها أو تذكُّر شيء منها، لدرجة أنّ المرء ليظنّ أنّه لم يكن هناك من بقيّة للخطبة.

وما إن جلسنا للغداء حتى بادرت «حسن» بالسؤال:

وماذا عن سفري إلى صنعاء؟

نظر إلى أمّي، ثم وضع لقمة في فمه. «دعيه يأكل» قالت أمّي. قلتُ لهم إنّ الألم لم يعد يُحتمل. وأنّي أصبحت أصحو منتصف الليل بنفَس مكتوم، فأضطرّ لفتح الشبّاك، وإكمال نومي نصف جالسة.

كنت أحسّ أنّ وحشًا يأكل أحشائي، وكانت هذه هي الحرب الحقيقيّة التي أكترث لها، والتي لا يريد أحد أن يعرف عنها شيئًا. لقد جهّزت حقائبي منذ أسبوع، قلتُ لأمّي. قامت عبير وغادرت المائدة. سألتها إلى أين أنتِ ذاهبة، فلم تردّ.

قال حسن لأمّي:

«ما بها، قومي، انظري ما بها».

سرعان ما عادت عبير، كانت تخفي ابتسامتها، وترتبك. انحنت ووضعت أمامي سلسال ذهب، كانت أمّي قد اشترته لها قبل سنوات. تقول عبير إنّ ذلك كان بعد انتهاء الحرب الثانية بشهرين، ولست متأكّدة من ذلك. أغلب الظنّ أنّها اشترته بين الحربين الأولى والثانية.

قالت عبير: بيعيه، وادخلي المستشفى.

سالت دمعة من عينيّ، ولم يكن وضعي ووزني يسمح لي بالقيام بأيّ حركة لشكرها. لم أعلّق بكلمة واحدة.

ــ حفظك الله، وحفظ الله أختك. قالت أمّي.

ــ «أحرجتني»، قال حسن ضاحكًا.

كان واضحًا أنّ قرار السفر إلى صنعاء أصبح نهائيًا. وأنّ عليّ أن أصعد الجبل مع هذا الشيء الذي في داخلي، مع حسن، ومع شقيق السيّد. تُرى هل سأعود إلى قريتي مرّة أخرى؟ اتّكأت على كفّي اليمنى ووقفت ببطء.

ــ الحمد الله، حفظك الله يا أحلى أمّ.

ــ هنيئًا.

تحرّكتُ عدّة خطوات ناحية الشبّاك. مسحتُ القرية بعينيّ. أحسست بأنّي لن أراها بعد ذلك إلى الأبد. انفجرت عيناي. مسحت خدّي بكفّي.

رأتني أمّي من الخلف، وصاحت بي:

ــ إيمان، ما بكِ؟

ــ لا شيء. ألم، يأتي ويروح.

إيمان

٢٠ / فبراير ٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

يا مدينة الله، وشمسي. أنتِ، أيّتها الوردة التي أسرجت الجبل والسهل، وغابت. الريح البلديّة التي جلبت السلام فأجفلتها الحرب. رأيتك في ليلة ما تصعدين الجبل إلى صنعاء، أو تهبطين إليها. لم تكن صنعاء، وأنت تدخلينها لأوّل مرّة تحملين صليبك، سوى مكان آخر للحرب. الحرب التي ستعيش معنا حتى تشيّعنا إلى القبور، ثم تعيش بعد ذلك طويلاً.

انتظرتك كثيرًا.

قلتُ لك يا شمس الله. لكن شمس الله ذبلت. جئتِ مرّة أخرى عبر فتاة اسمها إيمان، تحكي قصّتها التي أعرفها لأوّل مرّة. أقف على الشرفة الآن يا إيمان. أتذكّر الكلمات التي بنيناها معًا. لم أكن أعرف عنك سوى أنّك فتاة اسمها زينب، قالت إنّها تحبّ ما أكتب، وأنّها أصبحت تحبّ الشخص الذي يكتب.

لن ألهيكِ عن القصّة. سأعود إليها. فقط لم أقاوم الرغبة في أن أكتب لكِ تلك الكلمات، يا إيمان.

لا يوجد لديّ الآن المزيد من الكلمات. أخشى أن أقطع حكايتك بكلماتي. قرأت رسالتك الأخيرة مرّة تلو أخرى. عدتُ إلى صندوق الرسائل التي كنّا نتبادلها. ما تكتبه إيمان الآن، وما كتبته إيمان عندما كان اسمُها زينب. لن أنسى أنّك قلتِ لي في البداية أنّ اسمك ليس إيمان أيضًا. وجدتُ هذه الحكاية في واحد من حواراتنا. عن المجنون المختطف. سأذكّرك بالحكاية في هذه المساحة، فأنا أظنّ أنّ قصّته هي واحدة من تفاصيل قصّتك.

في تلك الليلة، أو ذلك النهار، قلتِ لي إنّك من صعدة، وكنتُ أظنّك فتاة صنعانيّة. سمعتُ صوتك لمرّة واحدة، وقلتُ لكِ إنّكِ عندما تضحكين يتساقط المطر، وتنام طيور الغابة.

«العزي» كان اسم المجنون. قالت القرية إنّه مجنون. دعيني أعد صياغة القصّة لتتلاءم مع تفاصيل قصّتك.

أحبّه الأطفال، كانوا يجدونه منتصف النهار يجلس

على حجر مقابل المسجد. لا يصلّي، وليس له أصدقاء سوى الأطفال. ليس لديه امرأة ولديه أخ أصغر منه سنًا يعمل مدرّسًا في المسجد. بعد انتهاء الدرس ثم انتهاء صلاة الظهر يغادر المدرّس، فيمرّ الأطفال على شقيقه العزّي. العزّي والمدرّس شقيقان لا يسلّم أحدهما على الآخر ويسكنان في بيت واحد. لكنّ العزي لا يأتي إلى مكانه ذاك إلاّ عندما يكون شقيقه في الداخل، في مدرسة المسجد. كأنّه كان يحرسه.

قال مرّة لطفلة سألته «لماذا لا تحضر معنا الدرس» إنّه يعمل بوصيّة أمّه الراحلة.

لم يقل ما هي وصيّة أمّه. ربّما كانت وصيّتها: احرس أخاك. غادر شقيقه للعمل في السعوديّة. وبقي الأطفال بلا مدرّس للدين. داوم المجنون على عادته وكان يحضر قبل الصلاة، يجلس على الحجر نفسه يشرب الشاي في علبة فاصوليا نحاسيّة. أصبح يحمل صرّة كبيرة مملوءة بالأشياء. كان أصدقاؤه الأطفال في الغالب من الإناث عندما كان أخوه لا يزال مدرّسًا في المسجد. بعد سفر الأخ إلى السعوديّة بقي للعزّي أصدقاؤه من الذكور، واختفت الإناث في البيوت.

«أنا مخترع» كان يقول لمن يسأله عن محتويات الصرّة.

تمرّ الأيّام، ويعود شقيقه من السعوديّة. فيطرد إلى قرية اليهود. ثم لا تمضي فترة طويلة حتى يطرد اليهود من القرية، ويرمى بسيّارة المدرّس في المنحدر. بعد أيّام من جلاء أوّل مجموعة من اليهود يختفي العزّي من القرية. سرت شائعة تقول إنّه لم يكن مجنونًا وحسب، بل يقول كلامًا عن الله لا يليق. فقد سمعه صاحب الدكّان المقابل للمسجد وهو يقول لثلاثة أطفال يسألونه عن مخترعاته:

«الله اخترعني مجنونًا، أنا أخترع أفضل من الله. لو اخترعتُ إنسانًا لن أخترعه مجنونًا».

سأله طفل: هل اخترعتَ إنسانًا من قبل؟

— نعم، اخترعتُ أخي عبد الحافظ.

— «اختراع فاشل، عبد الحافظ وهّابي»، قال طفل.

علّق طفل آخر:

ـــ «يعني أنّك اخترعت مجنونًا».

ثم كركر الأطفال بالضحك، فصاح بهم أن يسكتوا وإلاّ فإنّه سيغادرهم. بعد أن هدأ الضحك، قال لهم:

ـــ عبد الحافظ ليس مجنونًا، ولا وهّابيًا. عبد الحافظ مدرّس للقرآن. كان يدرّس هنا.

ـــ لماذا طردوه مع اليهود وأحرقوا سيّارته؟

ـــ لأنّ ابنة الشيخ كانت تحبّه. كان يلتقيها في إصطبل الأبقار وقت صلاة العشاء.

ـــ صفيّة؟

ـــ نعم صفيّة. صفيّة الصغيرة كانت تحبّه.

اختفى العزّي لأنّه قال إنّه يخترع أفضل من الله. منعت هذه الجملة سكّان القرية من التعاطف معه. لكن صاحب الدكّان أخفى الجزء الأهمّ من القصّة، الجزء الذي أفشاه الأطفال الثلاثة بعد ذلك.

بعد أن أعدت قراءة كلّ محادثاتنا، وأعدتُ قراءة رسائلك السابقة، استطعت صياغة هذه القصّة. أرجو أن لا يكون ربطي للأحداث على هذا الشكل خاطئًا.

هل هذا الجزء، بالتفاصيل التي سردتها، هو بالفعل جزء من القصّة؟

م. غ

عزيزي الكاتب،

أشعر بالسعادة. أنت لم تتحمّس لقصّتي فقط، بل ذهبت تكتشف أسرارها الصغيرة. حسنًا الآن سأقول لك:

أعِد صياغة قصّتي على طريقتك، وعلى لساني.

قرأت قصّة المجنون التي كتبتها. سحرتني. هتفتُ: اللللله. بالمناسبة، القصّة التي رواها المجنون ليست صحيحة. لم تكن صفيّة تحبّ عبد الحافظ. كانت على علاقة مع الوهّابي الحقيقي، الذي أصيب بالحمّى، فغادر القرية ولم يعد بعد ذلك. أتذكّر أنّي رويت لك القصّة قبل حوالى عام بصورة مختصرة. قلتُ لك:

كان هناك مجنون في قريتنا، لديه أخ يدرّس الدين في المسجد، اختفى في ظروف غامضة. قيل إنّ أناسًا أخفوه لأنّه قال إنّه يخترع أفضل من الله. ذكرت لك كلمات قليلة بعد ذلك، لكنّك تخيّلت القصّة كلّها. مرّة أخرى: شكرًا لأنّك منحتني السعادة مرّتين في رسالتك الأخيرة. إحداهما من خلال قصّة العزّي. كأنّك كنت تتحدّث عن المجذوب عبد السلام في روايتك «الخزرجي». أخفيتهما بالطريقة نفسها، وملأتهما بالأسرار.

تدري، سعادتي أكبر لأنّ المجذوب عبد السلام خرج من روايتك وأصبح بطلاً لروايتي.

لا يعلم أحد سبب حقد السيّد المبجّل على الأستاذ عبد الحافظ. ممّا قاله أبي لنا، فيما بعد، إنّ رحيله إلى السعوديّة كان عبر نصيحة على طريقة التهديد. كانت صفيّة لا تزال صغيرة، تكبرني بعامين تقريبًا كما قلتُ لك في السابق. هذه المعلومة مهمّة لفهم التفاصيل الدقيقة في قصّتي.

عندما غادر عبد الحافظ القرية كانت في السادسة عشرة من العمر. اشتهرت قصّة علاقة صفيّة بالمدرّس، لهذا السبب ــ ربّما ــ كانت صفيّة متحمّسة للقصّة التي روتها نساء القرية عن علاقتي بالمدرّس عبد الحافظ. فيما بعد ستفهم لماذا كانت الأسرة تقاتل لأجل أن تبقى هذه القصّة على هذا النحو من دون أن يطرأ عليها أيّ تعديل

قد يعيد رواية المجنون إلى الألسن. لقد أصيب السيّد بالفزع عندما قال له حسن إنّنا، هو وأنا، سنسافر إلى صنعاء، فقرّر إرسال شقيقه معنا.

نسي الناس مع الأيّام القصّة التي رواها العزّي المجنون وتذكّروا رواية السيّد.

لكن لماذا تحدّث المجنون عن إصطبل الأبقار؟ لا أدري. أتذكّره ونحن صغار. لم يكن مجنونًا كما يتوقّع الشخص. بالنسبة للأطفال كان مجنونًا. عند كبار السنّ كان رجلاً صاحب أسرار. هذه الجملة لم تكن تقال على هذا النحو. سمعت من نساء القرية في الجلسات التي كانت تجمعنا كلامًا كثيرًا نقلاً عن أبنائهنّ وأزواجهنّ.

قالت امرأة: «المجنون يرى بنور الله».

قالت أخرى إنّ زوجها اختبره أكثر من مرّة فكان كلامه يأتي صحيحًا مثل الفجر. قالت المرأة الأولى إنّه لم يمت، ولكن أخذوه إلى الحرب.

قرّرت المرأة: «لما يحمل في قلبه من بركة».

إلاّ أنّ أمّي قاطعتهم:

«سمعتُ صوتًا مفزعًا قبل الفجر، كأنّه صوت وحش. بعد ذلك اختفى العزّي».

عندما تركتُ القرية كان قد اختفى منها كلّ هؤلاء: أبي، الوهّابي، العزّي، المدرّس، وشمعة.

وكثيرٌ من الشباب الذين أكلتهم الحرب. كنّا نأكل معًا قبل سنين، نأكل الخبز والبطاطا المسلوقة أمام المسجد. وعندما كبروا قليلاً ابتلعتهم الجبال التي لا نعرف ما يجري وراءها.

لو عدت إليها الآن سأجد نفسي بلا ذكريات.

ليلة السفر إلى صنعاء سهرنا معًا. كانت أمّي خائفة، ومشغولة البال. كنتُ متأكّدة أنّ ذلك بسبب ما نحن قادمون عليه. لكنّها قطعت أحاديثنا بجملة صارمة:

«لو استمرّت الحروب على هذا المنوال سيقتل كلّ شباب القرية والقرى المجاورة ولن تجد بناتنا أزواجًا».

صرفت عبير نظرها عن أمّي، مدّعية انشغالها بتجهيز أشيائي. عصر ذلك اليوم بلغ أمّي نبأ خروج أحد شباب القرية إلى الحرب. كان شابًا وسيمًا وخجولاً. قبل أسبوع من تلك الليلة تحدّثت أمّه إلى أمّي عن رغبته، ورغبة أسرته، في الارتباط بعبير. تزوّجتْ عبير بعد سفري إلى صنعاء بحوالى ثلاثة أعوام من شابٍ آخر، في سنّها نفسه. المسكينة انتظرت طويلاً، من دون جدوى. لم يعد خطيبها الأوّل إلى القرية حتى الآن، ولا يعرف أحد عنه شيئًا. كالعادة توجد الكثير من الإشاعات. لكنّ عبير لم يكن بمقدورها أن تصدّق الإشاعات لأكثر من أربع سنوات. نادرًا ما تطمئن المرأة إلى إشاعة يمضي عليها أكثر من نصف عام وهي لا تزال إشاعة. لكن عبير انتظرت أكثر من ذلك بكثير!

غادرتُ القرية، غادرتُ صعدة.

عندما اختفت القرية خلف ظهري لم ألتفِت إليها. ثم لم أرها بعد ذلك. استغرقت المسافة حوالى ساعة كاملة مشيًا على الأقدام حتى وصلنا موقف السيّارات. الموقف لم يكن بعيدًا عن قرية اليهود التي بدت كأنّها قرية مهجورة، رغم أنّها لم تكن كذلك.

كما رويتُ لك من قبل سيرحّل اليهود بعد ذلك بأيّام أو أسابيع.

لكن لماذا لا تخطر ببالي قرية اليهود، عندما أغلق عينيّ وأسرح، سوى قرية مهجورة مع أنّي لم أرها مهجورة قطّ؟ هل كنتُ أراها بقلبي لحظة مغادرتي للجبل؟ هل كانت شمعة هي شمس القرية، ولمّا لم أرها في ذلك الصباح، أو النهار، كانت مظلمة؟

مررت على بعد مسافة قريبة منها. كنّا نعبر الطريق بموازاة بيوت اليهود التي ستتناثر تحتنا. كأنّها كانت مقبرة كبيرة. لكن يا للعجب! كانت أغنية «ما السبب ما السبب يا مهجتي يا مريرب» تصدح. استرقت نظرة لشقيق الشيخ وهو يتقدّمنا، لم يكن يبدو عليه أنّه يسمع شيئًا. مررنا بمنحدر صغير، أمسك حسن بيدي ليساعدني على النزول. كان بطني ضخمًا جدًّا.

سألته «هل تسمع شيئًا».

أجاب بحركة رأسه «لا».

ابتسمتُ لنفسي. نزلت المنحدر، ثم استوى الطريق مرّة أخرى. كنتُ أمشي كعروس، ببطء شديد، يتقدّمها الشيخ وشقيقها. وكانت النساء في الوادي، في حقول القات يسترقن النظر إليّ. لم أكن عروسًا، بل مرتكبة خطيئة.

قلتُ لك إنّي في تلك الساعات، وحتى ما قبلها، لم أعد أكترث لشيء. سيّان ما سيقولونه عنّي. العجيب في أمري، وأمري لم يعُد يثير العجب عندي، أنّي ما إن عبرت تخوم قرية اليهود حتى شعرتُ بالأمان والسكينة. لا أدري لماذا انفجرت في أعماقي قصص شمعة كلّها. تذكّرت اللقاء الأخير الذي جمعني بها. ومعها تذكّرت «نبيّ القبائل». وددتُ، ولا أزال لا أفهم حالتي تلك، أن لا ألتقي نبيّ القبائل ذاك في طريقي، ولا في صنعاء.. أن أعثر في الطريق على نبيّ آخر يصلح لكلّ الناس، بمن فيهم أنا.

النبّي الذي لو أقنعوه أنّي ارتكبت الخطيئة فسيردّ عليهم كما فعل أخوه المسيح مع أمثالهم:

من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر.

قبل أن نجتاز آخر منزل في قرية اليهود رأيت دار المدرّس عبد الحافظ. كان قد اكتمل من دورين. لمحتُ الدار مرّتين، ثلاث مرّات، أو أكثر. كنت أراه من الأعلى، فتسنّى لي أن أرى الثياب والملاءات منشورة على السقف، كعادة أهل القرية في استقبال الشمس كلّ صباح. كنتُ أخطو خطوة أو خطوتين، ثم أنظر إلى دار عبد الحافظ. حتى عندما أصبحتُ إلى الخلف منّا. ارتبكت، نظرت إلى بطني. يا إلهي، ما الذي يحدث لكِ يا إيمان، قلتُ لنفسي! ها قد أصبحت القصّة التي نسجتها القرية ساكنة في ضميري، حتى إنّي صدّقتها من دون أن أعلم.

كأنّي كنتُ بالفعل أحمل جنينًا وأنّ عبد الحافظ هو والده. ماذا فعلتِ بي أيّتها القرية؟

تباطأ حسن في مشيه والتقط يدي. أدركتُ أنّه أراد

أن يشتّت انتباه شقيق الشيخ، الذي حاول فيما يبدو أن يلقي عليّ نظرة وأنا متلبّسة بالجريمة ـــ بتأمّل منزل المدرّس عبد الحافظ.

«هذا منزل المدرّس عبد الحافظ»، قال حسن.

ـــ لا يهمّني أمرُه، ولا أمر أحد.

عمرنا المتقارب وحياتنا معًا، حسن وأنا، جعلتنا صديقين أكثر من شقيقين. لا تستطيع فتاة في القرية أن تردّ على شقيقها بمثل هذه الطريقة. في حقيقة الأمر لو أنّ الظروف استبدلت شقيقي حسن بآخر لكان قد أطلق عليّ الرصاص مع أوّل إشاعة.

قلتُ له مرّة واحدة فقط قبل ذلك بأشهر:

«أنا مريضة يا حسن، الألم يقطع أحشائي، أحيانًا أعاني من نزيف حادّ وأحيانًا ينقطع كلّيًّا. في أحشائي وحش يفترسني يا حسن، وليس حملاً، أنا خائفة».

ثم انفجرتُ بالبكاء، وغطّيتُ وجهي بكفّيّ.

لم يبحث حسن عن أيّ دليل آخر بعد ذلك. كان يبتسم لي، ويمسح على رأسي، وأحيانًا يقبّل رأسي عندما يرى انهزامي. لكنّه لم يقل قطّ قبل ذلك اليوم «آمنتُ بك يا إيمان» إلاّ ونحن نصعد الجبال ونهبط المنحدرات، في طريقنا إلى صنعاء. الرحلة التي استمرّت نهارًا كاملاً، حتى اعتقدت أنّ نهارها سيستمرّ إلى الأبد، قبل أن يحلّ علينا الليل قبل دخول صنعاء بزمن.

إيمان

٢٤ / فبراير

٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

أنتظر هذه الرحلة: خروجك من القرية ودخولك صنعاء. انتظرتها منذ أوّل الرواية. ها أنا أستعيد، بموازاة هذه القصّة، قصّة أخرى. كانت زينب، التي ستعود مرّة أخرى وسيكون اسمُها إيمان، تترك آثارًا طفيفة عن أسرار قصّتها في أحاديثنا على الفيس بوك.

ذات مرّة سألتها:

ـــ أنت شاردة؟

ردّت عليّ بأيقونة ابتسامة. انشغلتُ عنها بقراءة موضوع ما، ربّما كان في السياسة. بعد دقائق كتبت زينب:

سرحتُ. تذكّرت صباحًا غادرتُ فيه القرية. لم تلوّح لي فيه طفلة ولم تدعُ لي عجوز. وعندما صار بمقدوري رؤية القرية كلّها من الأعلى قبل أن تختفي خلفي، لم يكن ثمّة من امرأة على السطح تشيّعني بعينيها.

قلتُ لكِ:

هذا النصّ رائع.

عدتِ وتركتِ لي ابتسامة، ثم اختفيتِ.

لم أكن أسألك: من أنتِ. كنتِ تتسلّلين إلى قلبي كما يفعل البرْد في عظام الراعي. وكان حضورك يضيئني فجأة، تمامًا مثل صهيل في واد. ها أنا أستعيد قصّتك التي تكتبينها الآن بهذا التناسق الأخّاذ. أسمعها ترنّ بداخلي، وأستعيدها في عبارات تركتِها أمامي في السابق من دون تفصيل. أنتِ لا تروين قصّة فتاة اسمُها إيمان خرجت من القرية بشبهة الخطيئة. أتخيّل المشهد بصورة أخرى: تسردين علينا قصّة خروج بلدتنا من التاريخ. أتخيّل المنازل وهي تغلق شبابيكها كي لا تراكِ وأنتِ تصعدين المدرّجات في الطريق إلى موقف السيّارة.

أغلق القوم النوافذ على الإنسان الذي بداخلهم ثم غرقوا في القيعان. ثم لا تمضي سوى أيّام قليلة حتى تفتح تلك الشبابيك مرّة أخرى لتراقب جنازة جديدة قادمة من خلف الجبل، من الطريق الذي عبرت فيه إيمان تحمل

بطنها الكبير.

بحثت عن شمس الله بعد غيابها.

لو سألتِ العجوز التي تسكنين في منزلها لقالت لكِ إنّ شمس الله لا ينبغي أن تغيب عن مدينة حتى الأبد.

ستقول لكِ:

حاشالله.

حاشا لشمس الله أن تسدل ستائرها وتذوب في الكون بلا رجعة. سألتُك، كنتُ أحاول أن أزحزحك عن شرودك وصمتِك:

خرجتِ من القرية إلى المدينة؟

قلتِ لي: نعم.

سألتُك: هل وجدتِ المدينة؟

كعادتك، رددت عليّ بأيقونة مبتسمة. حاولت أن أتشاغل بقراءة شيء ما. كنتُ أجري تحديثًا لصفحتي على الفيس بوك لأرى ما إذا كانت زينب، الهاشميّة التي استعمرتني، ردّت عليّ بكلمة أو جملة. أنتِ لم تكذبي عليّ. لم تقولي لي قطّ إنّكِ هاشميّة. أنا من أقنعتك أنّك كذلك، أو تخيّلتك في لاوعيي فتاة هاشميّة. تذكّري كلامي عن الحبّ المحرّم، ولا تعلّقي عليه الآن.

بعد انتظار طويل كتبتِ:

وجدتُ مدينتي في أعماقك.

كنتُ أثرثر أمامك ما إن أراكِ. أحدّثك عن الله، واللصوص في الجبل. عن أكفان الموتى وتاريخ الشعر. قلتُ لكِ ذات ليلة: لم أجد قطّ كاتبًا يستطيع أن يقول كلّ شيء في سطر واحد كما يفعل بورخيس. ضربتُ لك مثالاً في تقديمه لقصّته القصيرة «القرص»:

«أنا حطّاب، واسمي ليس مهمًّا، والكوخ الذي ولدتُ فيه والذي سأموت فيه يقع بمحاذاة الغابة».

على أمل أن تجمعي كلّ كلماتي وتبني منها قرية ومدينة. فكّرت أن أغرقكِ بالكلمات لتختبئي تحتها. كانت

كلماتُك القليلة تكفيني.

ما إن وقعت جملة بورخيس في قلبك حتى غبتِ. بعد برهة، نصف ساعة تقريبًا، عدتِ من جديد. عدتِ تحدّثينني عن مجنون القرية الذي اختفى وعاد. المجنون الذي كان يقول إنّه لو اخترع إنسانًا آخر فلن يخترعه مجنونًا.

كانت كلماتكِ القليلة تشعل العطش في مضارب إنساني المبدّد على ألف مئذنة.

على طريقة الحلاّج وهو في الأسر، يسارر فتاة في القصر أهدت له وردة:

«لم يزدني الوردُ إلاّ عطشًا».

كان عطشي يطيش في كلماتي.

في الليلة الأخيرة، عندما أغلقتِ حسابكِ ولم أركِ بعدها، قلتُ لك إنّي أريدُك.

قلتِ لي:

«لا تسألني لماذا، ولكنّي سأختفي. هذه الليلة لك، قل فيها ما تشاء».

رأيتكِ تغرقين في المحيط، وأنا معلّق على سارية في سفينة. كتبتُ لك كلامًا كثيرًا في الحبّ، وصلتُ حدود الفناء. تصوّفتُ. عدت بعد تلك الليلة وقرأت ما كتبتُه لكِ. كان مريعًا. لم تكن مجرّد كلمات منقوعة بالوله والحنين والبكاء، بل بالاشتهاء أيضًا. هل تتذكّرين قصّة الأمير زال وروادبه. كأنّي أردت في تلك الليلة أن أدخل فيكِ حتى يشهق الفجر، فتنجبين طفلاً يسوق السفن في المحيطات، والخيول في المنحدرات.

قلتِ لي بنقاء فتاة هاشميّة، رغم أنّك لم تكوني هاشميّة:

«أنتَ لست على ما يُرام، غدًا أو بعد غد ستدرك أنّك لم تكن على ما يُرام».

لم أرَكِ بعد تلك الليلة. عدتُ إلى حديثنا وقرأته. عدتُ إليه عشرات المرّات. كنتِ مثل سحابة فاتنة تقف فوق صدري، مكتنزة بالمطر والبرَد. تعتصر ذاتها وتمطر قطرة

واحدة، وتعبُر.

قبل اختفائك بدقائق، وبعد أن توقّفتِ عن التفاعل مع ما أكتبه لكِ، أحسستُ بارتباك. كتبتُ:

الله يغفر للعاشق.

قلتِ لي: زينب ليست الله.

لم يكن اسمُك زينب، ولم يكن الله في صفّي.

ـــ لكنّ الله يحبّ زينب، قلتُ لكِ.

ـــ ويغضب لأجلها، ويغار عليها، قلتِ لي.

ـــ سأخطبك من الله. قلتُ لكِ.

تركتِ لي أيقونة مبتسمة، واختفت كلّ كلماتك معك. تهتُ في الوديان والعيون، تهتُ مثل أذان في فلاة، وأبعد. كنتُ أهوي مثل سيّارة المدرّس عبد الحافظ، أهوي ولا أصل القيعان. في تلك اللحظات تكشّفتِ عن إنسانة شديدة التصوّف والإشراق. كنتُ أقف أمامك عاري الصدر، وكانت كلماتك تكتشفني دفعة واحدة.

لذا كنتُ أناديك بشمس الله.

تحدّثي يا شمس الله..

م. غ

عزيزي الكاتب،

اقتربنا من موقف السيّارات. كاد نَفَسي ينقطع. لم يعد بمقدوري أن أمشي لأبعد من ذلك. صار عليّ أن أرتاح تحت أيّ ظلّ بعد كلّ مائة أو مائتي خطوة. تأخّر حسن ومشى خلفي. غمرني دفء غريب. كأنّه كان يعوّضني عن كلّ شيء تركته خلفي ولم يأبه لي.

صدّقني، عندما أنظر إلى كلّ الأيّام التي تركتها خلفي لا أرى سوى حسن. أن يقف أحبّ الناس إليك، وآخر الناس حولك، يقف خلفك في تلك الساعة التي ستنكرك فيها كلّ الإنسانيّة ثم يقول لك من كلّ أعماقه: لا تبتئس، أنا تاريخك. تخيّل هذه الحالة كما يحلو لك. تذكّر أنّي كنتُ في التاسعة عشرة، وكان في الواحدة والعشرين من العمر.

على بعد عشرات الخطوات كانت السيّارة التي ستنقلنا واقفة. ذهب حسن إليها. كان شقيق الشيخ قد وصلها قبل ذلك ببرهة من الزمن. ركب حسن في السيّارة، فتحرّكت بحذر في اتّجاهي. لم يكن الميدان يكفي لكي تتحرّك السيّارة كما يحلو لسائقها.

وقفتُ. لم يكن من السهل عليّ أن أجلس ثم أقف، أن أقوم بهذه الحركة خلال دقائق قليلة. لم يكن سهلاً بالمرّة. وعندما يكون قلبك مهزومًا فإنّ الوقوف يصبح بعيد المنال.

كنتُ قد استرحتُ للتوّ جوار دكّان صغير من الزنك. هناك جلستُ على حجرة صغيرة. استغرق الوقت بضع دقائق حتى يذهب حسن ويعود إليّ بالسيّارة. وضعت يدي على جبهتي، التقطتُ بعض الأنفاس. كنتُ منتقبة، بالطبع. أرتدي عباءة سوداء. بعد أن هدأ نَفَسي نظرت نحو اليمين فرأيت الكثير من الكلمات والعبارات على زنك الدكّان. عبارات عن الموت لأميركا والجهاد. عبارات بذيئة مشطوبة. كانت هناك أيضًا جملة أو جملتان تتحدّثان عن الجمهوريّة، كأنّ شخصين أو أكثر يتصارعان بالخطّ الركيك على جدار الدكّان من الخارج.

قبل أن أصرف نظري رأيت في الأسفل جملة يقول صاحبها إنّه انتظر كثيرًا. توقّفت عينيّ على الجملة. لم يدوّن كاتبها سوى كلمتين: انتظرتُ كثيرًا. مثل هذه الكلمات المبهمة كانت تصدر في العادة عن العزّي، المجنون، كما قلتُ لك في السابق. هل جلس هنالك على تلك الحجرة الصغيرة وانتظر كثيرًا؟ ماذا عساه أن يكون قد انتظر؟ عندما أعدت قراءة روايتك «الخزرجي» أصبت بالذهول الشديد. الأيّام الأخيرة للمجذوب تشابهت إلى حدّ بعيد مع الأيّام الأخيرة في حياة العزّي. قلتَ في آخر الرواية إنّ العبارات الصوفيّة التي كانت تُكتب من وقت لآخر على ضريح الخزرجي ربّما كان مصدرها المجذوب نفسه. كانت قد مرّت حوالى أربع سنوات على ذلك اليوم عندما قرأت رواية الخزرجي. اقتربت منّي طفلة صغيرة حافية كانت تقود ماعزًا. لم تتحدّث إليّ، استندت إلى حائط الدكّان بالقرب منّي. مثلي جاءت تبحث عن الظلّ. بكفّها اليسرى كانت ممسكة برباط الماعز وباليمنى تمسح على رأسه. كسرتُ الصمت وسألتها:

ــ من أيّ قرية أنتِ؟

ــ من هناك.

أشارت بيدها إلى مجموعة من البيوت ترتفع قليلاً أعلى المكان الذي تقف فيه السيّارات.

ــ ما اسمك؟

ــ إيمان.

ــ أسألك عن اسمِك؟

ــ اسمي إيمان. قلتُ لك.

ــ أنا أيضًا اسمي إيمان.

ابتسمتُ لها من وراء النقاب.

ــ لا، اسمك ليس إيمان. قالت وهي تصرف نظرها عنّي إلى القرية.

ــ لماذا تظنّين أنّ اسمي ليس إيمان؟

ابتسمتُ. نظرت إلى رأس الماعز الذي كان يحاول

أن يفلت من يدها أو يتحرّك بعيدًا عنها. قالت له بلهجة حازمة:

ـــ اهدأ، عيب.

تراجع قليلاً، ألصق جسده بفخذ الصغيرة إيمان، وهدأ على نحو غريب.

ـــ أين الناس؟ لماذا لا أرى أحدًا في قريتك؟

ـــ في الحرب، كلّهم.

قالت إيمان بعد ثوانٍ من الشرود.

ـــ وأنتِ، لماذا لا تذهبين معهم؟

ـــ معهم؟

سألتني إيمان وهي تنظر إليّ بنصف وجهها. تأمّلتْ قريتها من جديد، كأنّها تتفحّصها.. تحاول أن تتأكّد أنّ كلّ شيء على ما يُرام. ضغطت على رباط الماعز وضمّته إليها أكثر. انبعث حنين وخوف مفاجئين في أعماقها، هكذا خطر ببالي.

أعدت السؤال عليها:

«لماذا لا تردّين على سؤالي؟ لماذا لا تذهبين معهم؟».

ـــ «الذين يذهبون معهم لا يعودون».

قالت إيمان وهي توزّع عينيها على قريتها كما لو كانت تبحث عنها، أو تحرسها!

لم يكن هنالك من أحد، كانت إيمان مع الماعز لوحدهما، والقرية. أمّا الحرب فكانت تملأ الأرجاء. الأرض المحروقة تلتهم كلّ الحياة التي عاشت آلاف السنين في جبالنا. الحياة التي لم تأكلها الظروف والأزمان جاءت الحرب فدكّتها بكلّ وحشيّة. وقفتُ. استندت بيدي إلى جدار الزنك برفق كي لا أحدث صوتًا يزعج صاحب الدكّان المفتوح على الجهة الأخرى. قلت لك قبل قليل إلى أيّ مدى كان الوقوف صعبًا بالنسبة لي.

وضعت يدي على رأس إيمان الصغيرة ودعوتُ لها

بطول العمر. ابتسمتْ ابتسامة أنارت أمامي بقيّة الرحلة إلى صنعاء. كانت تبتسم وهي تتأمّل بطني.

ــــ لو رزقتِ ببنتٌ ماذا ستسمّينها؟

قذفني سؤالها إلى أعماقي.

أنا لستُ حاملاً. ليتني كنتُ كذلك! أختبّئ في الداخل وحشًا أو موتًا، لا أدري.. لماذا صعقتِني يا إيمان بهذا السؤال!

ــــ سأسمّيها إيمان. قلتُ لها.

أضاءتني مرّة أخرى بابتسامة ثانية.

منذ تلك اللحظة أصبحت أنا إيمان. تلك الصغيرة الشاردة فوق جبل، تحرس قريتها التي لم يعُد فيها أحد.

إيمان! في لحظة ما استجمعت كلّ نورها وخلقتني.

ركبت في السيّارة إلى جوار حسن. وقفت إيمان في مكانها. لوّحت لنا بيدها. سألني حسن عنها. قلتُ له اسمها إيمان. كما قلتُ لك في أوّل الرواية، سيهمس حسن في أذني ونحن نجتاز المسلّحين والمنحدرات: آمنتُ بك يا إيمان.

ولم يكنْ اسمي إيمان.

تحرّكت السيّارة. لا يزال صوتُ محرّكها يرنّ في أذنيّ حتى الساعة. لم تكن المرّة الأولى، فقد ركبتُ سيّارة قبل ذلك. ليس كثيرًا، مجرّد مرّات قليلة أستطيع تذكّرها كلّها. كان علينا أن نهبط منحدرًا مخيفًا ثم نمشي في طريق أفقي مشقوق في الجبل. شُقّ ذلك الطريق عندما كنت أدرس في المسجد، أي بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمري. قيل إنّ الدولة تكفّلت بتلك العمليّة، لكن فيما بعد أصبح الناس يتحدّثون عن السيّد الذي شقّ الطريق إلى قُرانا، حتى نسينا بالكامل ما قيل من قبلُ عن الدولة.

في البدء خاف سكّان القرَية. قالت أمّي إنّ ذلك الطريق سيجلب اللصوص. قالت هذه الفكرة في جلسة نسائيّة في بيت شيخ القرية المبجّل. قالت زوجة الشيخ: الخوف ليس من اللصوص بل من الأجانب. علّقت امرأة

أخرى: سيعلّم الرجال الكسَل.

كنت صغيرة لا ينبغي لها أن تقول أشياء مختلفة عمّا تقوله النساء البالغات، على وجه الخصوص زوجة الشيخ المبجّل، وهي امرأة شريفة لا تقول كلامًا عاريًا من الصحّة، كما كان يُقال عنها. تجرّأت وسألتها: «لكنّ الطريق جلب البضائع؟».

ابتسمت لي، كما لو كانت تساعدني بعد أن قلتُ كلامًا سخيفًا. لكن امرأة في آخر الديوان هتفت بحماس: صحيح.

هزّت زوجة الشيخ رأسها:

«البضائع؟ ماذا تعني البضائع غير الديون ووجع القلب؟».

تأمّلت وجوه النساء الموجودات. بدا لي كما لو أنّ السيّدة قالت الكلام الفصل الذي لا يعلوه شيء. حتى إنّي، وأنا طفلة، اقتنعتُ بالفكرة. لطالما سمعتُ كلمة الديون في حديث أبي وأمّي.

ها أنا أفرّ من القرية عبر الطريق الذي جلب اللصوص والديون، ولم يجلب الأجانب. من هُنا تمرّ سيّارة المدرّس عبد الحافظ، أسررتُ لنفسي. في هذا المنحدر، وأنا ألقي ببصري إلى أقاصيه، سيلقى بسيّارة المدرّس المسكونة بالروح الخبيثة. كانت السيّارة تمرّ ببطء وحذر، شبابيكها مفتوحة.

ـــ لديك أشرطة مغنى؟ سأل شقيق الشيخ.

ـــ «بالتأكيد»، أجاب السائق وهو يشير إلى دولاب صغير مقابل ساقيْ شقيق الشيخ.

ـــ «لا أعتقد أنّها فكرة جيّدة»، هتف حسن من الخلف.

سأله شقيق الشيخ من دون أن يلتفت إليه، كعادة أبناء القرية عندما تكون هناك امرأة:

«ما الذي يدفعك لقول ذلك؟».

ـــ نقاط التفتيش منتشرة في كلّ مكان. من الأفضل

أن نستمع لبعض دروس السيّد. لا نريد أن نواجه أيّ مشكلة. وضع إيمان لا يحتمل.

ـــ «أوافقك»، قال السائق وهو يبحث عن شيء ما فوق رأسه.

استخرج من الأعلى شريطًا للسيّد يتحدّث فيه عن الجهاد. لا أتذكّر منه كلمة واحدة. منذ فترة أصبح الجهاد بالنسبة لي، حتى بالنسبة لحسن نفسه، يعني أن تقف أمام مدرّس العلوم القادم من تعز ثم تطلق النار على صدره. كان السائق وحسن يتبادلان تنبيهنا.

يقول حسن: تمهّل، نحن نقترب من نقطة مسلّحين. يقول السائق: بعد هذا المنحنى سنواجه نقطة مجاهدين.

يستخدمان كلمات مختلفة للشيء نفسه، كأنّهما كانا يخوضان صراعًا سرّيًا. أصدقك القول: وجدتُ نفسي مستمتعة بهذه الحرب بين الرجلين. كان السائق، خمّنتُ، في منتصف الثلاثينيّات. شقيق الشيخ لا يكثر من الكلام. لم تكن تبدو عليه علامات القلق. جرت العادة أنّ السادة لا يتحدّثون كثيرًا، ولا يعيدون الجملة مرّتين. أتذكّر أنّ أمّي شعرت بالاشمئزاز، ذات مرّة، بعد أن غادرت صفيّة منزلنا.

سألتها، فأجابت:

ألا تلاحظين كم تثرثر؟

قلتُ لها:

«ما العيب في ذلك، نحن صديقات. أنا أيضًا أثرثر مثلها وأكثر».

ـــ نعم، ولكنّها شريفة لا ينبغي لها ذلك.

ـــ «ماذا؟» صرخت في وجه أمّي.

ـــ هؤلاء نسل النبي، يا ابنتي. كلامهم حكمة ورحمة. ينبغي أن يقتصدوا في الكلام فليس كلّ الناس يستأهلون تلك الرحمة.

اقتربنا من أوّل نقطة تفتيش. كانت تبعد حوالى ساعة كاملة عن آخر منزل في قريتنا. رأيت مجموعة من المسلّحين في ثياب رثّة. كانت شفاههم يابسة وملامحهم

متآكلة. يحملون البنادق على أكتافهم وصناديق الذخيرة على صدورهم. قدّرت أعمارهم ما بين الـ ١٦ والعشرين عامًا. لا نعرف منهم أحدًا.

ــ «أطفال». أفلتت منّي هذه الكلمة.

ــ «بل رجال»، علّق السائق.

ــ «كان شقيقك حسن أصغر منهم عندما اشترك في أوّل حرب»، علّق شقيق الشيخ.

فهم حسن، كما أسرّ لي فيما بعد، أنّ شقيق الشيخ أراد أن يضيف لجملة السائق: أمّا حسن فلم يعد رجلاً الآن، ها هو يفرّ من الحرب.

اقترب المسلّحون من السيّارة من جهة السائق.

ــ «معي امرأة حامل»، قال لهم.

ــ «إلى أين ستأخذونها؟» سأله مسلّح.

ــ إلى صنعاء، أجاب شقيق الشيخ.

ــ لا أنصحكم بذلك. الجيش يحاصر المنطقة من كلّ الجهات مدعومًا بالعدوّ الأجنبي، والطيران يقصف كلّ سيّارة تتحرّك على الأرض.

ــ «ما الجديد هذه المرّة»! كلّ مرّة يحاصروننا من كلّ الجهات ثم ينهزمون ويرسلون الوسطاء، قال السائق.

ــ «الجديد هذه المرّة! إنّهم مصمّمون على طمس كلمة الحقّ».

قال الشابّ المسلح وهو يتراجع بضع خطوات إلى الخلف معطيًا إشارة بيده. اجتزنا أوّل حاجز بهدوء. تنفّستُ بعمق. شبابيك السيّارة مفتوحة وأصوات الانفجارات تصلني من وقت لآخر.. كانت تأتي من البعيد، وأحيانًا أقرب من ذلك البعيد.

تباطأت السيّارة مرّة أخرى. بعد لحظات توقّفت. فتح السائق الباب ونظر إلى الأمام، ثم عاد مرّة أخرى إلى السيّارة. لم يقل كلمة واحدة، ولم نسأله عن سبب خروجه. حتى إنّي اعتقدت أنّنا لم نستغرب فعله. حرّك السيّارة من جديد، بعد وقت قصير جدًّا كانت السيّارة تميل بصورة

مقلقة. اجتزنا المنحدر الخطر، تنفّست الصعداء بعد دقائق قليلة!

ــــ «لا أدري كيف يمرّ المجاهدون عبر هذا الطريق؟» تساءل السائق.

ــــ «لا يمرّون من هنا»، قال حسن.

في تلك اللحظة، عند ذلك المنحدر، قرّرت أن أضع فاصلاً لحياتي. حياتي قبل المنحدر، وحياتي بعده. استجمعت كلّ شجاعتي. في الحقيقة لا تملك المرأة في قريتنا أيّ مستوى من الشجاعة. كان الرجال يتحدّثون طوال الوقت، والنساء يستمعن. قدرهنّ الطاعة وقدرهم الثرثرة. إذا سألت امرأة ماذا بقي في رأسك من كلّ ثرثرة زوجك في البيت لن تتذكّر جملة واحدة ذات قيمة. ومع ذلك فلا ينبغي لها أن تتحدّث.. فهي إن فعلت سوف تتفوّه بأمور تافهة.

بالنسبة إلى إيمان، التي كنتُها في تلك اللحظة، كان لا بدّ أن تنهي تلك الحقبة من حياتها. كانت في منتصف التاسعة عشرة، لم تعِش بين المثرثرين بل في مكتبة جدّها وقبل ذلك في مدرسة عبد الحافظ. ترك المدرّس في إيمان معاني كثيرة وكلمات كثيرة. لم يكن يثرثر مثلهم. كان يثير إعجابها. كان يوم خميس عندما شرح لنا المدرّس لأوّل مرّة معنى آية من القرآن مستشهدًا بالشعر العربي. لم نفهم الشيء الكثير ممّا قاله. غير أنّه لم يكترث لملامحنا، وبدلاً من أن يكتفي ببيت من الشعر لشرح معنى الآية تحدث كثيرًا عن الشعر. لم أكن الفتاة الأكبر. كان هناك فتيات في الخامسة عشرة من عمرهنّ، يكبرنني بسنة واحدة. استمعنا لأوّل مرّة لحديث شهيّ عن شعر الغزل والحبّ.

شردتُ في الدرس، لم أفق إلاّ في منزلنا. تهت في البادية التي كان عبد الحافظ يتحدّث عنها. تخيّلت إيمان بنتًا ناضجة، مكتملة الأنوثة، تخرج رأسها من باب موارب فتسقط جدائلها إلى الأرض. تتأمّل يمينًا وشمالاً فيهبّ شابّ مكتمل الرجولة إليها، في مساء البادية الساحر، يلتقط من يدها ورقة ويختفي. شعرتُ بذلك المزيج من

الفخر والكبرياء، فقد كتبتُ له قصيدة حبّ، وسأنتظره بعد غد. سيكون قد كتب لي قصيدة. في الطريق إلى المنزل بعد انتهاء الدرس كنت أصعد سلسلة من الدّرَج الحجريّة المرصوصة، صنعتها القرية على مدى سنين طويلة بسبب الجغرافيا الصعبة لقريتنا. كنت أرفع عباءتي لأصعد فأتخيّل نفسي أعبر عتبة الباب إلى الفناء الخلفي لألقي برسالة إلى حبيب خلف السور. تخيّلته على شكل المدرّس عبد الحافظ. بل كان هو. كان قد كبر قليلاً، وكنتُ قد اكتملت بما يكفي ليمنحني قصيدة في الحبّ والوله. كانت القبيلة نائمة، تعتقد أنّها آمنة من الأعداء، ولم يكن ذلك صحيحًا. فقد كنت أنا وعبد الحافظ نتبادل القصائد رغمًا عنها. هزمناها، تسلّلنا إلى أعماقها، رفعنا الستائر عن خبائها، كشفنا أسرارها التي تخشى عليها من العيون، ثم عدنا إلى بيوتنا سالمين.

كانت تلك اللحظات، التي تخيّلت فيها قصّة حبّ في طريقي من المسجد إلى البيت، من أحلى أوقات القرية.

أعود بك مرّة أخرى إلى السيّارة التي عبرت للتوّ المنحدر:

قطعتُ حديث السائق وحسن بكلماتي. لكي أمتلك الشجاعة، لئلاّ يرتجف صوتي، وضعت حقيبتي الصغيرة على حجري. نعم كان لي أيضًا حقيبة كتف صغيرة. تلك الطقوس الأنثويّة كنّا قد اكتسبناها مؤخّرًا. أدخلت كفّي في حقيبتي كما لو أنّي أبحث عن شيء ما. اعتقدت أنّ هذه الحركة بإمكانها أن تخفّف من توتري. تذكر جيّدًا: في قريتي يوجد نساء لم يركبن سيّارة قطّ. حتى أولئك اللاتي ركبن سيّارة في يوم من الأيّام، وكان ينظر إليهنّ باعتبارهنّ الأكثر رقيًّا، فهنّ لم يتحدّثن قطّ أمام الأغراب. كانت شمعة، وهي ليست من قريتنا، الوحيدة التي لا تنطبق عليها شروط المرأة التي في قريتنا. لذا كانت تنعت بالشيطانة.

وأحيانًا كان يكفي أن تقول اليهوديّة ليعرف الآخرون أنّك تقصد شمعة، وأنّك تقصد أيضًا: الشيطانة.

كانت أيضًا تدخّن السجائر. كانت شمعة وعبد الحافظ

بطلين بالنسبة لي. عندما طرد عبد الحافظ من قريتنا إلى قرية اليهود بنى له هناك منزلاً، كما قلتُ لك، ولم يكن صديقًا لشمعة. لم يكونا أصدقاء، كما عرفت فيما بعد. لا أدري لماذا يحتاج المرء أحيانًا لوقت كافٍ وهدوء حقيقي حتى يستطيع اكتشاف البشر. اكتشافهم لا معرفتهم. أنتَ كنتَ تقول لي دائمًا: يا لَكِ، يا زينب، لقد اكتشفتِني دفعة واحدة. رغم أنّي لم أكن أعرفك. اكتشفتُك، أعترف لك، وهذه ليست محاولة منّي لصرفك عن التفكير في فتاة البادية إيمان، التي ترفع الثوب عن ساقيها وتتّجه إلى السور لتلقي للمدرّس عبد الحافظ بقصيدة حبّ. إذا صحّ أنّي اكتشفتُك دفعة واحدة، فأنت لم تكتشفني. كانت كلماتك تضيء كلّ أعماقي، لكنّها تخطئ نقطة ما بداخلي. لا أعرف ما هي!

عندما غادرتُك، وأغلقت حسابي على الفيس بوك، فكّرت على هذا النحو. كنتُ أسأل نفسي:

كيف دخل إليكِ هذا المجنون بكلّ عنفوانه وسحره، أنارك كأنّك فانوس على قمّة جبل، وأخطأ شيئًا ما في أعماقك.

سأعود مرّة أخرى إلى السيّارة عند المنحدر:

كما قلتُ لك، عند ذلك المنحدر، أو بعده بقليل، وضعت فاصلاً في حياتي. وأنت تكتشفني مرّة أخرى، عندما تنير كشّافك بداخلي ولا تخطئ ذلك الشيء العميق الذي لا تزال تخطئه حتى الآن، تعرّف على مكان ذلك المنحدر الجبلي في حياتي. اكتشف امرأتين معًا: زينب، وإيمان. زينب التي أصبحت إيمان وهي تضع قدمها في السيّارة، وإلى الخلف منها طفلة صغيرة تلوّح لها. وإيمان التي ستعيش في صنعاء، ربّما إلى الأبد.

ــــ «الحرب لم تجلب غير الشقاء، سواء أكان أبطالها مجاهدين أو مجرمين» قلتُ لهم وأنا ألعب بمحتويات حقيبتي.

كأنّني صببت على رؤوسهم الماء البارد. صدمتُهم، ليس لأنّي فقط امرأة تتحدّث في السيّارة، وهذا

وحده كان كافيًا ليكون حدثًا كبيرًا، بل لأنّي أيضًا ربطتُ «المجاهدين» بالشقاء.

ـــ «رعاكِ الله يا ابنتي، لا ينبغي أن يصدر عنك هذا الكلام، ولا أن تفكّري بهذا الشكل» قال شقيق الشيخ.

ـــ «المجاهدون لا يجلبون الشقاء، بل يدافعون عن الأعراض» قال السائق.

علّقت على كلماتهم:

«كان حسن مجاهدًا، لم نكن ننتظره ليحكي عن الذين قتلهم ولا عن انتصاراته، بل ليقول لنا كم كان جائعًا وخائفًا ومشتاقًا. كنّا ننتظره ليعود إلينا كما تركنا، لا بطلاً بل شابًّا بريئًا، لا يدري ماذا سيفعل في الغد».

ساد صمت لثوان. لم يجرؤ منهم أحد على النظر إلى وجهي، أقصد إلى عينيّ.

واصلتُ حديثي:

«حتى إنّ أمّي كانت تجبره على أن يخبّئ بندقيّته في غرفة مهجورة في منزل جدّي. كانت بندقيّة مكروهة، كنّا نبغضها. كان منظرها كافيًا لإشقاء أرواحنا، لإخافتنا. أبي كان يمتلك بندقيّة، كانت معلّقة في الديوان، نحترمها ونجلّها كلّنا. حتى إنّ أمّي كانت تمسحها بخرقة ملابس كلّ جمعة وأحيانًا تضع المبخرة تحتها. كانت تنظّفها كما تنظّف أواني المطبخ. بندقيّة حسن لم تكن جزءًا من أسرتنا، ولا مشاعرنا. حتى إذا لم تكن قد جلبت الشقاء فقد كانت شاهدًا عليه. أعرف العشرات من البيوت في القرية تعيش بشقاء وحزن، كأنّها تعيش في ظلام دامس بسبب هذه الحروب. ماذا سيفيد المرأة التي فقدت ابنها أن يقال لها إنّه عاش مجاهدًا ومات شهيدًا؟ أمّي لم تكن تريد أن ترى من حسن سوى أن ينشأ كما نشأ أجداده، يحرث الأرض، ويحرس الزرع، وينجب الأبناء، ويدخل البهجة على قلبها».

كنتُ أتحدّث بانطلاق، كما لم أفعل في حياتي.

أخرج حسن يدي من الحقيبة بعد فراغي من كلامي. أمسك كفّي وضغط عليها بحنان. كان يقول لي: رائع، يا

إيمان. قالها عشرات المرّات بلا كلمات. فقد ضغط على يدي بالحنان نفسه عشرات المرّات. وكنتُ أشعر بالفخر. لم يعلّق الشيخ، ولا السائق، ولا حسن. تشاغلوا بمشاهدة الجبال والمنحدرات، ومراقبة الطريق.

قلتُ في نفسي:

«هربوا من كلماتكِ يا إيمان».

وكانت المرّة الأولى التي سأنادي فيها نفسي باسمي الجديد.

إيمان

٢٨ / فبراير

٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

أراكِ الآن تصعدين الجبل.

هل تجلّى الله على الجبل في ليلة ما؟ لستِ هاشميّة.. لكن اسمك هذه المرّة زينب. تمامًا كما كان عندما قلتُ لك: يا شمس الله. أكتب لك هذه الرسالة وأنا وحيد بالقرب من نهر. كنت معك في القرية، وأنت تنضجين مثل الحرب. كنتُ، أيضًا، معك في المدينة، وأنت تذوين مثل الحرب. ثم فقدتُك، لم أعد أجد سبيلاً إليكِ. فقدتُك تمامًا، كأنّك دخلتِ في الحرب وخرجتِ من التاريخ.

أنتِ، أيّتها الصغيرة المشعّة يا جرحي المفتوح على البحر، لطالما كانت الحرب تحدّك من كلّ جهاتك. اصعدي الجبل رويدًا رويدًا، لا تزعجي الأطفال من حَمَلة السلاح، لا تجفلي الطيور على أكتاف النائمين في الكمائن، لا تقولي للمقاتلين: عودوا إلى الوادي.

اصعدي الجبل رويدًا رويدًا، حتى تقفي بمحاذاة الشمس، ثم اهبطي معها إلى الأبديّة. كنتُ الراكب الخامس في السيّارة التي قامت بإجلائك من القرية. كنتُ الخامس الذي لم يمسك دمعته وهو يستمع لحديثك عن بندقيّتين: بندقيّة حسن العائد من الحرب، وبندقيّة والدك العائد من الوادي. رأينا معًا من نافذة السيّارة. سمعنا المدافع وهي تقدح الدخان في القرى. ودّعنا ديار اليهود بنظراتنا خلسة. كنتُ معك، في أعماقك، وبين عينيك.

عندما ابتسمتُ لك إيمان الصغيرة وابتهلت بعينيها لتصحبك السلامة كنت أضع كفّيَّ تحت قدمك، لتصعدي. كأنّي كنت معكِ في السيّارة. لقد سمعتُ نفسي وأنا أقول لهم:

«إذا انتصرنا في هذه الحرب لن نحتفل، لأنّنا نجهل الأعداء. إذا خسرنا لن نبتئس، فنحن لا نرى منتصرين. سيّان الطريق الذي ستسلكه الحرب ما دام الوادي لم يحترق بالكامل. لا أخشى سقوط السيّد في الحرب، أخشى سقوط شجرة الرمّان».

لن يجرؤ أحدٌ منهم على مجادلتي. أمامك لن أنهزم.

عندما تكونين أنتِ زوّادتي ولغتي فإنّ كلماتي تعرف طريقها. لقد قلتُ لهم «هل سمعتم ما قالته إيمان؟» التفتوا إليّ، فأنتِ لم يكن اسمك قد أصبح إيمان إلاّ منذ ساعة تقريبًا. هزمتهِم بالكلمات، وانهزمتُ في أعماقي. قلتُ لهم:

«تركت إيمان نبيَّ القبائل في القرية وها هي تتسلّق الجبل بحثًا عن نبيّ يهبها الحياة، نبيّ المدينة. لا تحدّثوها عن مجدّد النبوّة، بل جرّاح ينقذها من الوحش».

قلتُ لهم «إنّ إيمانكم بالإله منعكم من إنقاذ وهّابي صغير خطيئته العظيمة أنّه أحبّ فتاة هاشميّة. أتدرون ماذا حلّ بحبّه؟ أكلته الحمّى في الجبل، ونفق مثل قنفذ». أشرت إلى الخارج من نافذة السيّارة:

«أو ربّما أطلق عليه النار أحد هؤلاء الأطفال المسلّحين».

كان حسن يضغط على كفّك، وأنت تضغطين على كفّي. تقولين لي: ما أروعك. كنتُ الراكب الخامس الذي رافقك حتى الأبد ويوم. أتدرين؟ ربّما كنتُ أحد المشرّدين الذين جلبتهم الأقدار إلى القرية بعد أن شقّوا الطريق. استجمعت قواي وصعدت في جديلتك. ما إن وصلت إلى القرية في نهار لاهب حتى خارت قواي. استجمعت ذاتي، رأيت جديلتك ممتدّة من أعلى القرية حتى بطن الوادي فنمت تحتها. غفوت مع الخيول والمسافرين. عندما حلّ الليل لم يكن ثمّة سواي وخصلاتك. صعدتُ. صعدتُ، ورأيت شمس الله.

رأيتكِ تصعدين الجبل.

كنتُ معكِ ولم أكن معك. كنتُ فيكِ، وكنتُ حدودك. لم تكوني تنتظرين شيئًا سوى نبيّ المدينة. لكن بين لحظة وأخرى تضعين كفّك على بطنك.

أيّتها العذراء، يا من أنقذتني من نفسي ومن العالم، ماذا كنتِ تنتظرين؟

اصعدي الجبل رويدًا، واعصري السحاب على المتحاربين. هشّي دخان المعارك بجدائلك، وامنحي أمانك

للرعاة في الجبل. قولي لهم: انشروا أغنامكم، لا تجفلوا من الحرب. قولي للرعاة المختبئين في الجحور، الذين أخطأتهم الحرب حتى الساعة، إنّ النار يتبادلها المناضلون والمجاهدون. وأنّهم، لذلك، سيحملون الخطيئة حتى نهاية الأزمان. يقسمون «سننتصر» ولا يعرفون ما الذي سيفعلونه بعد ذلك. ربّما سينفقون ما تبقّى من أعمارهم في تأبين أعدائهم والكتابة على قبورهم.

قولي للرعاة:

تماسكوا قليلاً، سترثون الجبل يومًا ما.

اصعدي، يا إيمان، اصعدي..

م. غ

عزيزي الكاتب،

أخذت منّي الرحلة من القرية إلى صنعاء يومًا وليلة. ما إن وضعت الحقيبة في بيت السيّدة العجوز، التي أسكن لديها منذ ذلك اليوم، حتى تنفّست بعمق. لم أصدّق أنّي وصلتُ أخيرًا. قال حسن للسيّدة: «يا إلهي، كانت أطول رحلة في حياتي».

كان يتحسّس صدره بتلقائيّة كأنّه لا يصدّق أنّه نجى. ابتسمت السيّدة «الحمد الله على سلامتكم». قلتُ لها وأنا أنزع نقابي: الله يسلّمك.

كنتُ فتاة جميلة. إذا جاز لي أن أحنّ إلى شيء، فسأحنّ لليلتي الأولى في صنعاء. أحسست بأنّ الله خلقني في تلك الساعة للمرّة الأولى، وأنّي أطأ الأرض لأوّل مرّة كما فعلت حوّاء بعد الخطيئة. كان صوتي دافئًا، قرويًّا صافيًا. كان «مثل المطر في الفجر» كما قالت أمّي. انتظرتُ أن تقع عينا السيّدة على عينيّ، إلاّ أنّهما انزلقتا إلى بطني. ارتبكت. في أحوال أخرى كنت سأقوم من مكاني لأغطّي على ارتباكي، لكنَّ بطني لم يكن يسمح لي بفعل أبسط الأشياء.

ذهب شقيق السيّد إلى مكان آخر. لديه أهل في صنعاء «أكثر من حبّات الرمّان» كما قال لنا. «أمّا نحن فلا نملك في صنعاء حتى الرمّان» علّق حسن، وضحكوا معًا. السيّدة العجوز هي إحدى نساء أسرته الكبيرة الموزّعة على أكثر من منطقة. لم يقل لنا كيف جرى تنسيق هذه الرحلة، ولا من الذي اقترح أن أنزل لدى السيّدة. «اتركوا الأمر عليّ» كان يردّد، فنترك الأمر له كما أراد. فيما بعد، بعد وقت ليس طويلاً، قالت السيّدة إنّها عرفت بأمر قصّتي مصادفة، وأنّها بدواعي الشفقة والوحدة، اقترحت أن تستقبلني في بيتها «حتى يجعل الله لها سبيلاً» كانت تقول لهم.

لم تقل يومًا ماذا تعني بكلمة «مصادفة»، ولم أسألها. توجد طرق كثيرة لانتقال القصص من القرية إلى المدينة ومن المدينة إلى القرية. عندما أتذكّر حياتي في القرية، لا أتذكّر الكثير من القصص القادمة من صنعاء.

كنّا نتخيّل القصص، ونتخيّل صنعاء. حتى الجامع الكبير وباب اليمن، ومطار صنعاء.. تخيّلنا كلّ ذلك. كانت خيالاتنا بدائيّة وبريئة. بعد مرور الزمن في صنعاء أصبح قلبي أقلّ طيبة وأكثر شكًّا، أي أصبحت أقلّ خيالاً من ذي قبل. في القرية لا يمرّ الزمن، ومع الأمطار والجفاف يتحوّل إلى جبال وسهول وفضاء.

أودّ أن أنبّهك إلى أنّ قصّة السيّدة تلك ليست جزءًا من الرواية. إلاّ أنّي سأختصرها لك في كلمات حتى يمكنك تخيّل القصّة بالكامل.

سأخمّن: كانت في منتصف الستّين عندما رأيتها أوّل مرّة. كبرتُ بعد ذلك، ولم تكبر هي. هي لا تكبر. سمعتُ هذه العبارة من أكثر من جارة لها. كانت سيّدة هاشميّة، عذراء. لم تتزوّج. مع الأيّام، أقصد بعد العمليّة الجراحيّة بالطبع، أصبحنا صديقتين. صارت علاقتنا عميقة ومليئة بالحنان. هي الآن قريتي، أو وطني كلّه. هل كبرتُ في السنّ حتى صرت بمحاذاتها، أم أنّها هي العذراء التي لا تزال في فجر أنوثتها، وأسرارها؟

لم تتزوّج لأنّ شباب الهاشميين في صنعاء أخطأوها، لم يقع عليها أيّ اختيار. لن أفشي سرّ قريتي لك، ولا لأحد آخر. أحبّت من خارج أسرتها الهاشميّة، وكالعادة لم يجرؤ عاشقها حتى عن سؤالها ما إذا كان ممكنًا أن يأتي لخطبتها.

«حتى أنا لم أطلب منه ذلك، كنّا الاثنين نعلم مصير حبّنا ونستسلم له»، قالت السيّدة.

اختفى حبيبها، كما اختفى العزّي والمجذوب والوهّابي. «في يوم ما قال لي إنّه سيتزوّج، لقد انتظر حتى أصبح في الثلاثين من عمره، كان لا بدّ أن يتزوّج. المرء يتزوّج في الأخير عندما يجد زوجة أو حبيبة. الهاشميّة لا ينطبق عليها هذا القانون. لأنّها تتزوّج عندما يجدها شخص معيّن، أو يجدونها له»، كانت السيّدة تتحدّث وهي متصالحة مع نفسها، إذ لم ألمح في صوتها ذلك الحزن الدافئ الذي توقّعته.

في الحقيقة اكتشفتُ مع الأيّام كم أنّ الحزن لا يزال يغطّيها من حاجبيها حتى حركة قدميها. الحزن ورث الحبّ فمنحها أمانًا عجيبًا. كان اسم حبيبها عرفات. لم تره منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولم تعرف عنه شيئًا. لكنّه كان معنا. سألتها ذات مرّة:

«ألم تشعري بالقلق وأنت تسكنين لوحدك؟».

قالت بشجن عميق:

«لا أخاف في صنعاء لأنّ عرفات موجود فيها، في مكان ما. لو حدث مكروه سيأتي».

قمتُ إليها وقبّلتُ رأسها. أمسكت بخدّيها بين كفّيّ. تأمّلت عينيها. كانت عيناي ترجفان، فأسدلت جفنيها. رموشها طويلة، ساحرة. عيناها مثل نجمتي فجر. قلتُ لها: «سيأتي عرفات». هزّت رأسها للأعلى وللأسفل، كما تفعل طفلة في الثانية عشرة، ومسحت دمعتها. في تلك الثواني الخاطفة، رأيت لأوّل مرّة دمعة السيّدة. دمعة صغيرة. دمعة واحدة نقيّة، متلألئة، أسرجت البيت لزمن طويل. لم أتحرّك من مكاني، كانت تجلس على كرسي في صالون البيت. في الوقت الذي كنت لا أزال منحنية تجاهها، سقطت خصلة من شعري على خدّها.

ـــ آسفة، سامحيني يا جدّة.

رفعت عينيها ببطء إلى وجهي بينما أنا منشغلة بلملمة شعري.

ـــ كان لديّ شعر طويل مثل شعرك. لم يره عرفات. وعندما سألني عن شعري، قلت له إنّه يمتدّ من غرفتي إلى الشارع.

قلتُ لها والفرحة تقفز من شفتيّ:

«لماذا لم تسدلي له شعرك ليتسلّق عليه».

ابتسمتْ:

«أنتِ لا تعرفين عرفات، سيصدّق. كان يؤمن بكلّ ما أقوله له».

ثم صرفت عينيها عنّي، وحرّكت أصبعيها: الإبهام

والسبّابة على المسبحة:

سبحان الله، سبحان الله، سبحا..

في تلك الساعة كانت قد بلغت مشارف السبعين من العمر. عاشت كلّ ذلك العمر بلا خليل. عشقت عرفات من أطرافها حتى الأعماق، لكنّه ما لبث أن غاب. ليس عرفات وحسب، كلّهم غابوا. حتى والداها، وأشقاؤها الثلاثة غابوا. منعوا عنها الأزواج الذين لا ينحدرون من السلالة نفسها وتركوها لوحدها. تزوّج أحد أشقّائها من امرأة غير هاشميّة، فأنجبت له أطفالاً نصف هاشميين، كما تصفهم السيّدة العجوز مازحة.

كانت هذه السيّدة هي وطني الجديد، القرية الجديدة التي نزحتُ إليها، فلم أجد نبيّ القبائل هناك. في صور عديدة رأيتها تتشابه مع صديقتي القديمة اليهوديّة شمعة. كانت شمعة بالنسبة لي تحتلّ نصف حكاياتي ونصف شجني وأكثر. لم تتزوّج شمعة حتى تجاوزت السبعين. لا أدري ما إذا كانت قد تجاوزت السبعين عندما رأيتها لآخر مرّة، بيد أنّ ملامح وجهها، والتغييرات العميقة التي تبدو في نظراتها، وكلماتها وتكوين صوتها تشبه إلى حدّ كبير ما ألمحه على السيّدة الهاشميّة هنا، في هذا الدار. انتظرت شمعة الزوج اليهودي الجدير بها، لكنّه لم يأتِ.

«إذا طرق أحدٌ منهم الباب افتحن قلوبكنّ له، ربّما لن يأتي غيره» قالت لنا شمعة، فضحكنا ببراءة.

الحروب لم تترك في القرية احتمالاً لأن يطرق أحدٌ من شبابها الباب على واحدة منّا. باستثناء الوهّابي الشابّ، فلم يكُن يأبه بالحرب ولا بالسلم. كان ينتظر صفيّة وحسب، وهو يعلم أنّ عمر هواه قصير. قالت لي عبير، شقيقتي، إنّ صفيّة تزوّجت بعد سفري إلى صنعاء بعام أو أكثر. خطبها أحد أفراد العائلة الكبيرة من قرية أخرى. وقفتُ أمام النافذة، كان الوقت صباحًا وعبير للتوّ أفاقت من نومها. أقامت عندنا في هذه الدار ثلاثة أيّام ثم عادت إلى القرية.

«كانت سعيدة مثل طفلة ترقص في العيد، لم أرها بمثل تلك السعادة. سعيدة جدًا حتى إنّي اعتقدت أنّها لم تعرف الوهّابي أبدًا».

قالت عبير عندما سألتها عن مشاعر صفيّة ليلة زفافها.

لا أزال، كنت، خلف النافذة أراقب الشارع في صنعاء. عبير تثرثر إلى الخلف منّي عن القرية وصفيّة والأطفال الذين لم أتعرّف على أيّ اسم منهم، أصبحوا الآن شبّانًا كما تقول كلمات عبير. كانت الثورة قد بلغت الذروة. أعداد البشر الذين ينامون في الشوارع لا يمكن حصرها. الخوف يملأ صنعاء، والشجن يملأ قلبي، بينما راحة غريبة تغمر السيّدة الهاشميّة طوال الوقت.

دخلت السيّدة إلى الصالون، ألقت التحيّة.

«تعالي يا جدّة، انظري» قلت لها. لم تكُن الخيام قد وصلت في الأيّام السابقة إلينا، خيام الثوّار. كانت مبتهجة حتى إنّها حاولت أن تفتح النافذة فمنعتها «سيبصروننا، يا جدّة».

وقفت عبير إلى يميني. على الناحية الأخرى من الشارع رأيت خيال نسوة أخريات يتأمّلن الخيام ربّما بالنشوة والإعجاب نفسيهما. في الليلة السابقة أصررتُ على أن تحدّثنا السيّدة، عبير وأنا، عن عرفات. لم أتخيّل أن تتحدّث امرأة في السبعين في شؤون الهوى والشوق كما سمعتها تلك الليلة.

«تعتقدين أنّ عرفات معهم الآن» سألتْها عبير ونحن نقف مباشرة خلف النافذة.

رمشت بعينيها أكثر من مرّة كما لو أنّها حاولت أن تمحو دمعة.

«بكلّ تأكيد. حبّنا نفسه كان ثورة، كما ردّد أمامي».

ـــ ثورة الحبّ شيء آخر، الحبّ، أيّ حبّ، كلّه ثورة.

قالت عبير ودون أن تلتفت إليها، هزّت رأسها غير مقتنعة بكلام شقيقتي. صدرت من شفتيها صافرة صغيرة

تعني «مستحيل».

استدارت، ثم أخذت مقعدًا في الصالون. كانت تتحدّث عن الحبّ إلى عبير، أمّا أنا فقد سرحت عيناي في منظر الخيام. أنا شابّة غمرتها أصوات المدافع في طفولتها، وسكنتها الجنازات التي كانت تأتي من البعيد. لا أحبّ السياسة ولا الحرب. كلّ ما في الأمر أنّ هؤلاء الذين ينصبون الخيام يحاولون أن يمنعوا ذلك المخلوق المتوحّش من أن يشنّ المزيد من الحرب على القرى في أيّ مكان، وأن لا يرى الأطفال جنازات كتلك التي رأيت. فقدت أبي، ولطالما مثّل لي حدود الوطن والشوق والأمن. منذ رحيله حتى الآن سكنت الكوابيس أحلامي. لم أنم ليلة واحدة من دون أن أحلم بكابوس أو اثنين على الأقلّ. لم أعرف شكل الأحلام المخيفة في وجوده. كان أسواري. ها هي الخيام تزحف في كلّ مكان. كان حسن يقول إنّ المجاهدين، عندما كان لا يزال واحدًا منهم، يستولون من وقت لآخر على المزيد من الدبّابات، وأنّهم يقاتلونه بدبّاباته. كنتُ أشعر بالوجل لمجرّد تخيّل الفكرة بالرّغم من أنّي لم أرَ دبّابة قطّ في حياتي حتى اليوم الذي غادرتُ فيه القرية. ها هو ينهزم الآن بطريقة أبسط من الدبّابات، بسلسلة من الخيام والأناشيد، قلتُ لنفسي.

قامت عبير من مقعدها واقتربت منّي. سألتني بصوت هامس:

«تعتقدين أنّ هذه الأفعال ستجدي؟».

سألتها ماذا تعني بكلمة الأفعال، فقالت لي: الأغاني وصلاة الجمعة في الشوارع والخيام.

قلتُ لها: من يدري.

تأمّلتْ وجهي بِوَلَهٍ نادر «أراكِ متحمّسة».

لم أستطع إكمال ابتسامتي. رميت عينيّ إلى البعيد، فرأيت جنازة أبي تصعد الجبل إلى مثواه النائي، هناك خلف الأكمة القصيّة! بعد ثوان أطلقت تنهيدة ممزّقة. قلتُ لعبير:

«أرى كلّ خيمة على هيئة مستشفى، وكلّ ثائر على

هيئة طبيب، يعملون ليبقوا أبي على قيد الحياة، لأجلنا، لأجل أمّي التي تواجه الآن قسوة الجبل والأيّام بمفردها».

كأنّي مزّقت صباح عبير فجأة.

وضعتْ رأسها على كتفي، فاحتضنتها، وتركت دمعتها تسيل في مواجهة الشارع.

إيمان

٦ / مارس ٢٠١٤

عزيزتي إيمان،

مرّ وقت طويل على آخر رسالة منك. ظننتُ أنّ قصّتك بلغت كمالها. أعدت قراءة ما كتبناه. وجد ألبرينغو من يروي عنه، لقد وجد نفسه. لكن روايتك لم تكتمل بعد. عندما كنتِ زينب، أوّل الأمر، وكنت أقول لك يا شمس الله، ذكرتِ لي مرّة قصّة قصيرة. اعتقدتُ أنّها كانت مجرّد قصّة إبداعيّة. في الأيّام السابقة، عندما توقّفتِ عن الكتابة، سمعتُ صوتًا في أعماقي يقول لي: ستختفي كالمرّة الأولى، أنت تربكها بأحاديثك عن الحبّ، تجفلها.

سمعتُ صوتك الأوّل، الأوّل القديم، وأنت تقولين: بعد أيّام ستكتشف أنّك لم تكُن على ما يُرام. لذا فكّرتُ بإكمال القصّة لوحدي.

هذه القصّة وجدتها ضمن أحاديثنا السابقة، كيف لم تلفت انتباهي؟ قلتُ لكِ: ياه، يا لها من بذرة لرواية كبيرة.

كعادتكِ تركتِ لي أيقونة ابتسامة. قرأت ابتسامتك هذه المرّة: أنتَ لن تكترث أبدًا يا مروان.

اسمحي لي أن أضع جزءًا من تلك القصّة هنا دون تعديل:

«كنتُ مريضةً. صحوتُ من فراشي ببطء شديد، كأنّ أحدهم وضع جبلاً على صدري بينما كنتُ مستغرقة في النوم. طرقت أمّي باب غرفتي بهدوء.

«صحوت منذ قليل» قلتُ لأمّي. وضعت أمامي كوبًا من الحليب الدافئ. جلستْ بالقرب من رأسي. تأمّلت بطني، ثم نظرت لعينيّ. وضعت يدها على جبهتي: «حرارتك مرتفعة» قالت بانفعال.

ابتسمتُ لها. وضعت يدي على خدّي وجبهتي.

«لا»، قلتُ.

أمسكتُ بيد أمّي «هنا، وهنا، هنا أيضًا على رقبتي» كنتُ أمرّر كفّ أمّي على عنقي وبين كتفيّ وأذنيّ.

«الحمد الله، يبدو أنّ يدي هي الدافئة» أردفت أمّي.

ـــ منذ متى وأنتِ مستيقظة؟ سألتُ أمّي، ثم وضعتُ

يدي على فمي، كنتُ أتثاءب.

ــ «يا كسولة».. وابتسمتْ.

وضعت يدها مرّة أخرى على جبهتي «جبهتك ساخنة يا إيمان».

ــ «مصرّة؟ نريد طرفًا ثالثًا».

دخلت شقيقتي، ووضعت يدها على جبيني:

ــ «باردة مثل الثلج»، قالت.

ــ «بسببكنّ سأفقد عقلي» قالت أمّي وهي تدّعي الحنق، بينما كانت أصوات ضحكاتنا تملأ الغرفة.

ــ ششششش، صوتكُنّ وصل إلى الشارع. لا ينبغي للمرأة أن تضحك على هذا النحو، أو أن يسمع رجلٌ أجنبيٌّ ضحكتها.

ــ «آسفة» قلتُ لها.

ــ «أووه، حتى الضحك ممنوع، وحرام» قالت أختي وهي تغادر الغرفة.

رشفتُ رشفة عميقة من كوب الحليب. «بارد؟» سألتني أمّي. كنتُ لا أزال مغمضة العينين. فعلتُ ذلك بتلقائيّة بمجرّد أن وصلت أوّل قطرة حليب إلى فمي. أحسست بالحليب يسيل في عروقي ويسحب معه كلّ آلامي.

«بَرَد؟ أجيبي، سأسخّنه مرّة أخرى» قالت أمّي.

لم أفتح عينيّ، ولم أجبها. كان الحليب يتحوّل إلى سحابة رائعة، إلى هالة تخرج من أطرافي وتسبح فوق رأسي. فتحت عينيّ بهدوء، كما لو كنت لا أريد أن أفزع السحابة الصغيرة.

«هئه» قلتُ لأمّي وأنا مطبقة شفتيَّ لئلاّ يهرب طعم الحليب من فمي.

«شهيّتنِي يا شرّيرة»، قالت أمّي وهي تبتسم وتمسح شفتيها بظهر كفّها.

ــ اسمعي، يا بنت!

ـــ هاه.

ـــ منذ حوالى ساعة مرّ العزّي، المجنون العزّي، تتذكّرينه؟

ـــ العزّي؟ المجنون؟

سألتها وأنا أسحب جسدي من الأسفل للأعلى حتى أتمكّن من الجلوس.

ـــ نعم هو. طرقَ الباب، ففتحت له. «السلام عليكم يا أمّ حسن، هل أجد لديكِ قليلاً من الماء» سألني العزّي. تركتُ الباب مواربًا وصعدت إلى المطبخ. أعطيته الزير الصغير الخاصّ بأخيك. اسمعي، لا أريده أن يعرف أنّ العزّي شرب من زيره، سيلقي به من الشبّاك إلى الوادي. أنت تعرفينه جيّدًا. لم يكُن هكذا، بالرّغم من طيبة قلبه. كثرة تردّده على ديوان الشيخ أكسبه عادات لست راضية عنها. أخاف أن يخسر طيبة قلبه وحبّه للمساكين.

ـــ «أكملي قصّة العزّي، ودعي أخي الآن يا أمّي»، اعترضت على أمّي بنفاد صبر.

ـــ تمام، لكنّ الحرص واجب.

ـــ لا تقلقي.. أكملي.

ـــ أخذ العزّي الزير وشرب منه دفعة واحدة. أشفقت عليه، كأنّه لم يذق قطرة منذ أشهُر. كان شاحبًا، نحيلاً. شعره طويل، ولحيته تصل إلى صدره، وعلى جبينه ندبة. تعرّفت عليه من صوته. القرية كلّها تحفظ صوته، كما تعرفين. سألته وهو يدير ظهره ليمضي:

«أين اختفيت كلّ هذه المدّة؟ قالوا إنّك رحتَ إلى الحرب»!

التفت إليّ ثم نظر إلى الأرض. بحث عن شيء بعينيه. رأى حجرًا كبيرًا بالقرب من الباب. اتّجه إلى الحجر بخطوات وجلس عليه، مثلما كان يفعل أمام المسجد. من قال إنّ العزّي لا يجيد الكلام إلاّ عندما يجلس على حجر؟ أظنّه هو من كان يقول هذا عن نفسه. كنّا نراه ونحن ذاهبات وعائدات من زياراتنا. تتذكّرين؟

ــــ أتذكّره كأنّه البارحة. كنّا نحسّ بالأمان عندما نراه في مكانه ذاك، حتى عندما توقّفت دروس المسجد. القرية كلّها كانت تحسّ بالأمان بسبب وجوده. أليس كذلك؟

أجابت أمّي بشرود خلاّب:

ــــ صدقتِ، أحيانًا كان ينام ليومين متواصلين. قالت أمّ مهدي إنّها أرسلت طفليها الاثنين ليوقظاه. «افتقدتُه» قالت. «حتى الأطفال افتقدوه» أضافت. قالت لنا، ونحن في بيتها، إنّها شعرت بالقلق أيضًا. فقد أطلّت من شبّاكها المشرف على وسط القرية ولم تره لوقت طويل، فأرسلت ولديها.

ــــ أتذكّر هذه الحكاية يا أمّي. ماذا قال لكِ اليوم؟ أين كان؟

أخذت أمّي نَفَسًا عميقًا كما لو أنّها تحاول تذكّر قصّة من غابر الزمن:

ــــ قال لي كلامًا غريبًا لم أفهمه كلّه. قال «أخذوني من القرية في الليل، من بيتي». قاطعته «من هم»؟ قال:

ــــ «لا أعرف، كانوا حوالى سبعة أشخاص. عصبوا عينيّ واقتادوني إلى مكان مجهول. هناك وضعوني في غرفة أو سجن أو إصطبل.. لا أعرف. شممتُ رائحة روث الأبقار فأحسست بالأمان. الأمان هو ما يبقيني حيًّا».

نظر إلى الزير وكان لا يزال في يدي.

ــــ «والماء، الماء أيضًا يبقيني على قيد الحياة» أضاف وهو يمسح جبينه بكمّ قميصه المتهتّك.

سألته «أين هو ذلك المكان، ولماذا؟».

قال:

ــــ «لا أعرف، حتى المكان نفسه لا أعرفه. كنت معصوب العينين. نزعوا ملابسي وأوقفوني في وسط غرفة. أظنّ أنّها كانت غرفة، فقد اختفت الأصوات التي كنت أسمعها في الطرق. لا أدري، غرفة أو إصطبل. جلس معي في الغرفة رجلان أو ثلاثة. أمروني بالوقوف عاريًا. لم يضربوني، كانوا فقط يصبّون عليّ أحيانًا ماء باردًا

وأحيانًا دافئًا. يعطوني الطعام بلا مواعيد. أحيانًا بعد وقت قصير وأحيانًا بعد وقت طويل. وضعوا شيئًا على أذنيَّ الاثنتين، فلم أتمكّن من السمع. لم أعد أسمع ولا أرى. استمرّ الحال طويلاً. فقدت الليل والنهار. فقدت الدنيا كلّها».

قاطعته: ألم تكن تنام، ولماذا كلّ هذا؟

قال وهو يتلفّت مثل القطّ:

«لا أدري من هم، ولا لماذا!! لم يكونوا يسمحون لي بالاستلقاء على ظهري. أحيانًا كنت أسقط على الأرض من التعب، فاضطروا لربط يديّ إلى السطح. لم تكن يداي مشدودتين، لكنّي لم أعد قادرًا على السقوط. كان ذلك مفزعًا، أعني أن لا يعود المرء قادرًا على السقوط. لا أدري هل كانوا يصلّون أم لا. وهل كانوا هنالك طوال الوقت. لم أكن أسمع شيئًا. بعد ذلك غطّوا يديّ وجسمي بالكامل. كان أسوأ ما حدث لي. فقدت الإحساس بالبرد. كان البرد هو ما يبقيني على قيد الحياة، إحساسي بالبرد».

تنهّد بعد ذلك، نظر إليّ مثل الطفل، وتلفّت مثل القطّ أو مثل الأرنب. تصدّقين يا ابنتي؟ كان كأنّه طفل. كان يحكّ قدميه وكفّيه كأنّه طفل. لقد حوّلوه من مجنون إلى طفل.

ــ وماذا أيضًا؟ احكي لي.

ــ سألته «وكيف أخرجوك، ولماذا اختطفوك؟».

قال:

ــ «لا أعرف. لم أسألهم حتى! وهم لم يتحدّثوا. قلتُ لكِ لم يضربوني. اعتقدت أنّهم سيسألونني عن اختراعاتي لأنّي كنتُ أكذب على الأطفال وأقول لهم إنّي مخترع. لم يسألوني عن شيء. كلّ ما كنت أحسّ به مجرّد صمت في أذنيَّ، وظلام أمام عينيّ. وعندما غطّوني بالكامل، فقدت الإحساس بوجودي. بعد ذلك صاروا من وقت لآخر ينزعون غطاء أذنيَّ فقط لوقت قصير ويطلقون وابلاً شديدًا من الرصاص، لا أدري إلى أين! كانت هذه اللحظات هي الأسوأ على قوّتي وإحساسي. أشعر بعدها بالانهيار الكامل

كأنّهم ألقوا بي من شاهق. مع مرور الوقت، بدأت أسمع من بعيد صوت طائرة. كانت تحوم بالقرب من المكان. كان صوتُها خافتًا».

قام العزّي بعد ذلك من مكانه وأنا مشلولة الأطراف واللسان. لم أستطع أن أقول كلمة واحدة. نفض التراب عن ملابسه الرثّة بالرّغم من أنّه كان جالسًا على حجر، وليس على الأرض.

قال وهو ينفض ملابسه:

ــ «كان صوت الطائرة هو الدليل الوحيد على أنّي لا أزال حيًّا. لا أدري ماذا حدث بعد ذلك. وجدت نفسي هذا الفجر هُناك بالقرب من قرية اليهود. فتحت عينيّ، كنت نائمًا قبلها. لا أدري ما الذي حدث، ولا أريد أن أدري. ذهبت إلى بيت عبد الحافظ في قرية بني سالم فوجدته مغلقًا... سأذهب إلى بيتي».

اختفى في الشارع ببطء، كان يعرج، به عرجة غريبة لم تكن معروفة عنه. دعا لي، ودعا لكِ يا إيمان.. دعا من قلبه.

ــ «يا الله!»، قلتُ لأمّي.

مسحتْ دمعتها:

«أحسست أنّ السماء تنشقّ لدعوته، والجبل يهتزّ. هذا المجنون وليّ من أولياء الله. لو رأيتِهِ يا إيمان وهو يتحدّث اليوم...».

ــ «خلاص يا أمّي، لستُ قادرة على إمساك دموعي. أرجوكِ».

قامت أمّي بعد ذلك من غرفتها، فانزلقتُ مرّة أخرى رويدًا رويدًا على سريري، ونمت. بينما كان النوم يتسلّل على أهدابي، أطلقت صرخة مكتومة: ربّاااااااه. أغمضت عينيّ. غفوت. رأيت الخيول فزعة في الوادي، رأيت الطيور تخرج من أكنانها مذعورة، رأيت الرعيان يختبئون خلف الصخور، كانت صرختي «ربّاااه» تطلق كلّ شيء من سكونه.

كانت مملوءة بآلام المجنون وخوفه.

إيمان

٢٠١٢

كانت هذه رسالتك يا إيمان. قرأتها كثيرًا.. كثيرًا. سأعترف لكِ: عندما قلتُ لك قبل فترة «يا لها من قصّة، تصلح لأن تكون بذرة رواية» لم أكن قد قرأتها. قرأت بضعة أسطر، كما أفعل في العادة مع الآخرين. هذا السلوك شائن، في الحقيقة، وغير أخلاقي. أعترف، ولا يبدو أنّي سأغيّره..

تحدّثي، أرجوك..

م. غ

عزيزي الكاتب،

توقّعتُ أن تجد الحكاية في أرشيف أحاديثنا. حتى لو أنّك كنت قد قرأتها في السابق، فستكون مجرّد فصّ صغير لا ملامح له. لكنّها الآن أخذت مكانها المناسب في القصّة. لو عدتَ إلى أحاديثنا مرّة أخرى، لو بحثتَ فيها ستجدني كنتُ أتدرّب على كتابة قصّتي. لم أكن أنوي أن أضع هذا الجزء من سيرة العزّي في الرواية، لكنّك أعدتني مرّة أخرى إلى أعماق القصّة. لم يكن العزّي مجرّد رجل غريب الأطوار، يقول إنّ صرّته المتّسخة تحوي مخترعاته. كان قاع القرية، وكان الشيخ قمّتها. كان الطرف القذر، وكان السيّد طرفها النقي. كانا مثل قطبين متناقضين. يلتمس سكّان القرية البركة من السيّد في العلن، ومن المجنون في السرّ. لا يفشون أسرارهم لبعضهم بالرّغم من أنّها لم تكن أسرارًا علانيّة: كان العزّي يجلب القحط والجراد، وكان السيّد يجلب المطر والزرع. في الأسرار: يا لهذا المجنون النقي، يا لبركته. اللهمّ اسقنا ببركة قلبه، وبنقاء سريرته. لأنّه كان وحيدًا ينام أغلب وقته، اعتقدوا أنّه لا يرتكب الخطايا ولا الذنوب.

لا يعلم أحد لماذا عذّبوه، ولا من هم أولئك الذين فعلوا به كلّ ذلك. في واقع الأمر لم يقل أحد إنّه رآه مرّة أخرى في القرية منذ اختفائه سوى أمّي، التي احتفظت أيضًا بتلك الرواية الخاصّة عن اختطافه وتعرّضه للتعذيب.

إيّاك أن تعيد صياغة الرواية من جديد على ضوء هذا الجزء من حياة العزّي، أن تكتب للقارئ مثلاً عن علاقة اختطاف العزّي بوشاية صاحب الدكّان. تتذكّر صاحب الدكّان الذي قال إنّه سمع المجنون يحدّث أصدقاءه من الأطفال: أنا أخترع أفضل من الله. ثم فسّر لهم غياب عبد الحافظ عن المدرسة بسبب وقوع ابنة السيّد في غرامه. لا نريد أن نكتب الحكاية على هذا الشكل.. فنحن ليس لدينا تفسير كامل لاختفائه، وليس بمقدورنا تصديق روايته عن التعذيب رغم كونها حكاية يصعب اختلاقها.

كانت صنعاء عندما رأيتها أوّل مرّة أشبه بمدينة مقدّسة، وأنا.. أنا كنتُ الفتاة الكتابيّة المؤمنة التي أرادوا

أن يقذفوها بالحجارة لولا أن منعهم المسيح. كان حسن هو مسيحي، وكنتُ أنا رسالته. آمن بي أكثر ممّا آمنتُ به. حملني على كتفيه، وصعد الجبل. ترك أبانا نائمًا في ترابه، بين التلّ والوادي، وتحمّل احتقار السائق وشقيق الشيخ طيلة يوم وليلة. قلتُ لحسن، وهو يبشّرني «ها قد وصلنا إلى صنعاء»:

«من الآن وصاعدًا سيكون اسمي إيمان».

لم يسألني لماذا. ابتسم فقط. هزّ رأسه وكأنّه أراد أن يبكي. للحظة رأيتني في عينه الفتاة اليتيمة التي تطاردها العيون والأحاديث، أكثر من الشقيقة التي تحتمي خلف كتفيه.

منذ اليوم التالي ذهب حسن يبحث عن مستشفى لإيمان. بعد ثلاثة أيّام أجريت أوّل عمليّة فحص بالأجهزة التلفزيونيّة. لأوّل مرّة أسمعهم ينادونني باسم «إيمان». فقدت إحساسي بالزمن. قفزت الفتاة الصغيرة، التي التقيتُها وأنا أغادر القرية، إلى خيالي وعينيّ. كانت عيناها مثل عينيْ أرنبة خائفة، وكان اسمُها إيمان. تمامًا مثل عينيّ الآن، ومثلي أنا، أنا إيمان. قالت إيمان إنّ الذين يذهبون إلى الحرب لا يعودون. أردت أن أسأل إيمان «وأنا، هل تعتقدين أنّي سأعود؟» لكنّها كانت قصيّة، قصيّة جدًّا لدرجة أنّي لن أراها إلى الأبد.

اقتربت من الشبّاك.

لا أمتلك بطاقة شخصيّة. نظرت إلى حسن، أردت أن أقول له بنظراتي: اذهب أنت إلى الشبّاك. فهم نظراتي، وهزّ رأسه نفيًا. أراد أن يقول لي: أنتِ قويّة وشُجاعة يا إيمان، وأنا أؤمن بك. كان حجم بطني قد بلغ حدًّا لا يحتمل. أشارت الممرّضة إلى باب قريب، فاتّجهت إليه. كنت أمشي ببطء كأنّي أكتشف الحياة والوجود. أحسست بنظرات حسن تشيّعني وتساندني. كانت نظراته تقول لي «ثقي بالله، وبي».

«ونعم بالله!» قلتُ لنفسي.

في انتظاري جلست طبيبة ترتدي الأبيض. كانت

أوّل طبيبة أزورها في حياتي. كشفت على بطني، وبدت على وجهها علامات القلق والتوتّر. تركت بطني مكشوفًا مغطًّى بمادّة لزجة بلا رائحة. تحدّثت عبر الهاتف إلى شخص يبدو أنّه زميلها أو رئيسها. كان واضحًا أنّها تتحدّث عن حالتي، لكنّها استخدمت بعض الجمل الإنجليزيّة، فلم أستطع وصل الكلام ببعضه. كنت في الواقع أحسّ باختناق شديد بسبب انزلاق بطني على صدري وأنفاسي وأنا مستلقية على الكرسي. بعد دقائق عادت الطبيبة وأمسكت بذلك الشيء وحرّكته على بطني. لم أسمع صوتًا سوى خشخشة خفيفة لحركة ذلك الشيء. ضغطت قليلاً فتألّمت. اعتذرت لي بارتباك. سألت نفسي ما إذا كانت هذه المرأة قد رأت حالة مشابهة لحالتي، أو أنّها تبحث عن شيء محدّد. فجأة فُتح باب الغرفة بصورة فجّة. ارتبكت، أردت أن أغطّي بطني أو أعدّل من وضعي، لكن لم يكن بمقدوري أن أحرّك ذلك الجبل الذي ينام فوقي بالسرعة المطلوبة. لم تعرّف الطبيبة بالغريب.

جلس على كرسيّ على يميني ووجهه مقابل وجهي. كلّ ما استطعت فعله هو أنّي أسدلتُ النقاب. كان الأمر مضحكًا وسخيفًا، أن تغطّي المرأة وجهها أمام رجل ينظر إلى بطنها العاري. لكنّي فعلتُ ذلك بدافع غريزي غير مفهوم. حرّك الرجل أصابعه وذلك الشيء على بطني. لم تمرّ أصابع رجل على بطني من قبل. أحسست ببرودة في ظهري وأطرافي. كنت أتنفّس بصعوبة، لكن أصابع الرجل، الذي قطع الصمت بقوله «أنا آسف، نسيت أن أعرّف بنفسي، أنا الدكتور زكريّا»، كانت تبعث السكينة في أعماقي. لم تكن أصابعه تكتشف المرض فقط، كانت تكتشف أسرارًا أخرى في داخلي: مشاعر غريبة لم أجرّبها قطّ. أو جرّبتها مرّة واحدة عندما تخيّلت نفسي أكتب قصائد الحبّ إلى المدرّس عبد الحافظ في البادية. لكن تلك المشاعر لم تكن ناضجة، كانت أشبه بقصّة خرافيّة لا تلتقي فيها الفتاة بحبيبها ولا يحزنها ذلك. كانت مشاعر فوق الكلمات، أمّا الآن فثمّة مشاعر بين أصابع الطبيب يقلّبها كما يشاء.

هززت رأسي، حاولت أن أتصرّف وكأنّ الأمر عاديٌّ. لم

أستطع، كانت المرّة الأولى والتجربة الأولى. لم يحدث أن تحرّكت أصابع رجل على جسدي، ولم أسمح لنفسي بتخيّل ذلك المشهد! ها قد أصبح حقيقة ولا بدّ من اكتشافها.

قطع الرجل شتاتي بجملة صارمة «اسمعي يا أخت».

التفت إلى الطبيبة:

ــــ «ما اسمها؟».

قالت له: إيمان.

انشغلت الطبيبة بتأمّل الشاشة التي أمامها. عاد الطبيب للهجته الحازمة:

«ربّما نجري لك فحوصات إضافيّة بالأشعّة المقطعيّة. لكن المؤكّد أنّكِ ستحتاجين لعمليّة جراحيّة».

بدأ قلبي بالخفقان. لم أستطع أن أتفوّه بكلمة واحدة. فأنا لم يسبق لي أن تحدّثت إلى أطبّاء. لستُ غبيّة لكنّي خشيتُ أن يظنّ الرجل، إذا سمع كلماتي، أنّي قرويّة ساذجة ومثيرة للشفقة. لا بأس أن تعتقد الطبيبة ذلك، لكن هذا الرجل.. لا. كأنّي كنتُ مدينة له بسرّ ما، فهو أوّل رجل اكتشفني. ليس بمعنى الاكتشاف الكلّي، لكنّه في الأخير الرجل الأوّل الذي قرع بابًا في جسدي. ولأنّي تركته يقرع حتى توقّفت يداه، فلا ينبغي أن يندم لأنّه قطع مسافة طويلة حتى يلتقيني.

تبًّا لتلك الأفكار السخيفة، هززت رأسي.

ما الذي يعصف بكِ يا إيمان! قلتُ لنفسي. لم أجد إجابة. بقيت صامتة. تأمّل عينيّ بثبات، كأنّه كان ينتظر منّي كلمة أو سؤالًا!! أنا فتاة جميلة، أعرف ذلك، لكنّه لا يعرف. ها هو يواصل اكتشافي. ها هو يطرق بابًا آخر ويكتشف جزيرة جديدة. صرف عينيه إلى الشاشة، وغمغم بكلمتين مع الطبيبة ثم عاد إليّ. نعم، عاد إليّ.

في تلك اللحظات أردت أن أقول لنفسي:

«ها قد عاد إليّ، وتركها».

ما الذي أصابني ساعتئذٍ؟ كلّ ما أفهمه أنّي قدمتُ إلى المدينة منذ ثلاثة أيّام، وأنّي لم أرَ طبيبًا قبل ذلك

قطّ.

سألني ما إذا كنتُ قد فهمت كلامه. صرفتُ عينيّ بكسل إلى الحائط، على يميني. لا أريد أن أتحدّث مع هذا الرجل الذي اطّلع على أسراري. وحده يستطيع أن يقول إنّه يعرفني، فكّرت. تدخّلت الطبيبة:

«سأشرح لها كلّ شيء، وسأتحدّث مع أقاربها». قالت هذه الجملة بنبرة مليئة بالشفقة.

كان حسن في الخارج ينتظرني. «ماذا لو عرف أنّ الرجل الذي خرج للتوّ من الغرفة مرّت أصابعه على بطن شقيقته، وغزا عينيها» سألت نفسي. تصدّعت العقائد في أعماقي «ها هي المدينة، كما قيل عنها، بلدة الخطايا. ها أنا أغرق في الخطايا منذ اليوم الثالث. خطاياها لا تمهل أحدًا، ولا تستأذنه، ولا تترك له الخيار. كلّ هؤلاء مخطئون».

سمعتُ كلّ هذه الكلمات في أعماقي وأنا أعيد وضع ملابسي وأنظّف المادّة اللزجة من على بطني بالمناديل.

«لقد خانتك إيمان يا حسن». لم يسمع حسن كلماتي.

في الطريق إلى البيت كان مرِحًا ومتفائلاً. سألته، وأنا أخشى أن ألقي عينيّ على عينيه كي لا يكتشف إثمي:

«ماذا قالت لك الطبيبة؟».

شرح لي ما قالته الطبيبة وكنت أبحث عن شيء ما في حقيبتي، أتشاغل حتى أبعده عن اكتشاف خيانتي له. في مساء ذلك اليوم سألته مرّة أخرى: ماذا قالت لك الطبيبة؟ تأمّلني مستغربًا:

«إيمان، هل نسيتِ ما قلته لك في النهار؟».

في الحقيقة كان سؤالي له، ونحن في سيّارة الأجرة عائدين إلى المنزل، مجرّد محاولة لتشتيته. قال لي في المساء بعد أن أخبرته أنّي لم أكن قادرة على التركيز:

«يشكّون بورم في بطنك. طمأنني الطبيب. قال إنّه في الغالب ورم حميد، وسيزال بعمليّة جراحيّة».

كان سعيدًا جدًّا، فهذه العمليّة لن تنقذ شرف أبيه في القبر، وقلب أمّه في القرية، وكرامته كشابّ شجاع، وحسب، بل ستنقذ إيمانه قبل ذلك. لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان ضمن نجاحات العمليّة كما يتخيّلها حسن أنّها ستنقذ حياتي؟

كانت تلك الليلة واحدة من أكثر الليالي نجومًا.

إذا لم أكن قد وصفتُ لك بيت السيّدة العجوز، فدعني أفعل الآن: شقّة في الدور الثالث، هو أيضًا الدور الأخير. تطلّ على الشارع، شارع الجامعة. خلف الباب الخارجي يوجد مجلس استقبال مؤثّث بصورة حديثة ومرتبط بحمّام صغير. تتفرّع عن المجلس غرفة صغيرة تشبه المكتبة، ولكن ليس فيها الكثير من الكتب. ينفصل هذا الجزء من البيت بحاجز وباب عن الجزء الداخلي. ما إن تمرّ عبر الباب حتى ترى منزلاً فسيحًا من ثلاث غرف، وصالون وحمّامين وبلكونة صغيرة. البلكونة متّصلة بغرفة السيّدة مباشرة. الصالون أيضًا يطلّ على الشارع لكن ليس عبر بلكونة. أمّا الغرفة التي نمتُ فيها تلك الليلة والليالي الأولى الثلاث، وبعد ذلك حتى الآن، فكانت تطلّ على شارع فرعي، على المنازل المجاورة. مع مرور الأيّام أصبحت صديقتها، ثم ابنتها، ثم صديقتها من جديد. دفعتني لتعلّم الكمبيوتر وبعض المهارات التي لن أحدّثك عنها الآن. عندما امتلكتُ جهاز لاب توب لأوّل مرّة، كان ذلك قبل عامين تقريبًا، ابتدأت حقبة جديدة من حياتي لا أدري ماذا سأسمّيها.

مرّة أخرى، سأعود بك إلى أوّل ليلة في صنعاء.

كانت ليلة طويلة، لم أسمع فيها أصوات الكلاب، ولم أنم بعمق. استغرق الطريق من القرية إلى صنعاء، بسبب الحرب، يومًا وليلة. لكنّ المسافة التي تفصل منازلنا في القرية عن منزل السيّدة العجوز مئات الأعوام. هل أبالغ إذا قلتُ ذلك؟ هل تظنّ أنّي أفعل؟

استسلمت للنداء المنبعث من أعماقي.

في الغد سألتقي زكريا. تذكّرت اسمه وحذفت لقبه لكي يبدو الأمر بالنسبة لي حميميًّا. أنا على موعد مع

زكريّا. مضحك، أليس كذلك؟ لو تذكّرني زكريّا في تلك الليلة، فسيقول لنفسه: لا بدّ أن أنام باكرًا فأنا على موعد مع مريضة بائسة ربّما تموت في أيّ لحظة. كانت التناقضات والأسئلة تزأر في أعماقي. دخلت رأس زكريّا في تلك الساعة واستمعت لما يجري بداخله، وما يجري في أعماقي.

زكريّا:

ــ لماذا تركتها تعود إلى البيت؟ كان لا بدّ أن أبقيها في المستشفى. فالمسكينة بالإمكان أن يحدث لها مكروه في أيّ وقت.

«لاحظي يا إيمان أنّه قال مكروه ولم يقل يمكن أن تموت».

إيمان:

ــ لا. ليس بعد يا إيمان. تمهّلي. أنتِ لا تعلمين ما الذي في أحشائك! هل سمعتِ؟ إنّه يقول لك: ثمّة ورم ضخم في بطنك. لماذا لا تكترثين؟ أيّهما أسوأ على حياتكِ أن تحملي جنينًا لأب لا تعرفه الأسرة، أم ورمًا؟ أيّهما يخيفك أكثر؟ أن تحملي من دون علم الأسرة أم ينمو ورم بداخلك يقضي عليكِ؟ أيّهما أخفّ وطأً على أهل القرية: أن تنزف الفتاة حتى الموت، أم تنام ساعةً مع رجل غريب؟ لو كنتِ يا إيمان، قلتُ لنفسي، في بلد آخر ربّما تضرّعت الأسرة لأن تحملي جنينًا غير شرعي عن أن يصيبك الورم. ربّما قالت لي أمّي: نامي مع الغريب وعيشي. حسن يطوف حولي، يؤمن بي. ماذا لو فقد إيمانه. سيقول لي بالتأكيد: موتي، ولا تنامي مع الغريب. لم أفكّر بمكاشفته: أيّهما أهون عليك أن تكون أختك «حاملاً» أم على شفا الموت؟ ماذا تنتظر في أعماقك: الورم أم الجنين الحرام؟ لم أسأله، لأنّي لم أكن مستعدّة لمزيد من الخسارة. إذا كان لا بدّ وأن أموت فلأمت وحسن لا يزال هو النجمة التي أضاءت طريقي وحرستني من النجوم.

قلّبت رأسي على المخدّة، كانت الغرفة مظلمة، وضوء خفيف يتسلّل عبر النافذة. أين يوجد ذلك البلد الذي تبتهل

فيها الأسرة ليكون الورم حقلاً محرّمًا، لا العكس؟

زكريّا:

ـــ لا بدّ أن أحدّث بقيّة الزملاء عن هذه القصّة. سأعرضها عليهم، وسنكشف على المريضة معًا في الغد. هذه حالة مثيرة للشفقة، يا إلٰهي، لا أكاد أصدّق. أكل ذلك الانتفاخ الضخم كان ورمًا. سنراها في الغد، لا بدّ أن أنام الآن.

إيمان:

ـــ أرجوك يا زكريّا.. يفزعني الغرباء، تعالَ لوحدك.

زكريا:

ـــ كم كانت شاحبة وبائسة. كيف انتظرت أسرتها حتى بلغ الورم ذلك الحجم. يا للإنسان في بلدي، كم هو بائس!! لو ماتت الليلة، ستقول أسرتها إنّه القدر. ما دخل القدر بهذا الشأن. لو جاءت في المراحل الأولى لذهب القدر إلى أناس آخرين وتركها تكمل حياتها. كم افترس المرض من أناس استسلموا له ظنًّا أنّه القدر؟

إيمان:

ـــ زكريّا، أنا خائفة. لم يسبق أن تحدّثت إلى رجل من قبل. تمهّل، وأنت تتحدّث إلى القرويّة الشريدة لا ترصّ كلماتك كلّها دفعة واحدة. مرّت عليّ أيّام طويلة لم أكن أسمع فيها أكثر من عشر كلمات طيلة النهار. زكريّا.. تخيّل يا زكريّا. حتى ليظنّ الشخص إنّ اللغة ماتت في الجبل. لا تتحرّك الشفاه، فقط العينان. وزّع كلماتك على جمل متباعدة حتى أتبيّنها. أنا مذعورة يا زكريا، وواجفة.

ـــ زكريّا:

ربّما لن تأتي في الغد، ولا بعد ذلك. ستموت إذن. المسكينة. لم تحرّك ساكنًا. هل فهمت ما أقوله لها؟ لا بدّ وأنّها فهمت، لكنّ الخبر لم يصدمها. هل اكترثت؟ لماذا لم تفتح شفتيها ذهولاً عندما سمعت كلمة «ورم»؟ هل كانت متزوّجة؟

إيمان:

ـــ لا لستُ متزوّجة. لم أفكّر قطّ بالزواج. ولم يلمسني أحد من قبل.. أحد غيرك.

زكريا:

ـــ من أيّ محافظة جاءت تلك المسكينة؟ من صعدة؟ فعلاً، قالت لي الزميلة إنّ الفتاة قادمة من صعدة. صنعاء ترسل الطائرات إلى صعدة. الطائرات الحربيّة والدبّابات فقط، ولا تسأل ما إذا كان الناس هنالك ينتظرون أشياء أخرى غير الطائرات في الجوّ والكلمات في الراديو. ما اسمُها؟ لا أتذكّر اسمها. كانت بحاجة إلى مساعدة أخرى من صنعاء غير «الأرض المحروقة».

إيمان:

ـــ نسيتَ اسمي يا زكريّا؟ لم تمرّ سوى ليلة واحدة فقط. يا إلهي، كيف فعلت ذلك؟ سأنام. لن أقول لك اسمي مرّة أخرى. أنا حزينة، حتى أنت لا تأبه لي. كلّكم..

زكريّا:

...

إيمان:

لماذا لا تتحدّث يا زكريّا؟ أغضبتك؟ حسنًا: اسمي إيمان. أرجوك، انسَ أنّي مريضة وتذكّر أنّ اسمي إيمان.

صباح اليوم التالي، مع الشروق، كنّا أمام المستشفى. اشترى لي حسن سندويتشًا بالجبن والزبدة، وكوبًا من الليمون. واشترى لنفسه جريدة. كان اسم الجريدة «أخبار اليوم». على صفحتها الأولى عناوين متشابكة مثل «المتمرّدون ينشرون زواج المتعة في القرى» و«اندحار القوى الظلاميّة». كان هناك أيضًا عنوان بالخطّ الأحمر فوق صورة لصواريخ ودبّابات: الحرب الأخيرة.

كان حسن يقرأ العناوين بتمهّل، كأنّه يتعلّم القراءة. استطعتُ أن ألمح ابتسامة لئيمة على شفتيه. أعرف تلك الابتسامة جيّدًا.

قطعت صمته: «كيف سآكل وأنا منقّبة؟».

تلفّت حواليه بحيرة. كنت أجلس على كرسي انتظار

في صالة فسيحة.

«ضعي جبينك على كتفي، وكلي من تحت النقاب. بسرعة»، همَسْ.

ـــ لم آكل خارج المنزل من قبل في حياتي. لم آكل بمثل هذه الطريقة. بسرعة؟ ماذا تعني كلمة «بسرعة»؟ لا بدّ وأنّ هنالك بلدانًا أخرى لا تأكل فيها النساء من تحت النقاب ويشعرن بالسعادة. لكن أين هي هذه البلدان؟ شيء آخر، هناك شيء آخر مهمّ. عندما أقول «النقاب» فأنا لا أعني النقاب الذي تراه في صنعاء. نحن نسمّيه في صعدة «الشيلة»، وهي قطعة سميكة تضعها المرأة على رأسها ووجهها.. حتى العينين، كما في صنعاء. في صعدة لن ترى عينين ولن يكون بوسعك أن تفرّق بين منظر امرأة في العشرين أو في الخمسين.

كان العالم كلّه يقع خلف الجبل. ما إن تطلّ من أعلى قمّة في الجبل حتى ينكشف لك كلّ العالم. لا يزال العالم على هذا الصورة في قريتي. الجبل؟ عبرته في طفولتي مرّات قليلة، زرت فيها مدينة صعدة مع والدي. لكن صعدة لم تبدُ لي جزءًا من ذلك العالم الذي يقع بالكامل خلف الجبل. استعدت تركيزي. استمتعت بالأكل.

هل يعرف زكريّا هذه الأكلة اللذيذة؟ لو سألني اليوم، أو لو سألني الليلة كما فعل البارحة، ما الذي أعجبك في صنعاء ماذا سأقول له. من العيب أن أتحدّث عن الأكل مع رجل مثله. كانت أمّي تقول لنا:

«الرجل يتصوّر المرأة مثل الملاك لا تأكل ولا تضحك بصوت مرتفع».

حسنًا سأقول لزكريّا: أعجبني المستشفى. لا أستطيع أن أقول له صراحة: أنت. هل سيفهم ما أعنيه؟ ماذا لو قال لي: «أعجبك المستشفى، رائع» ثم اختفى. كيف سأشرح له ما أعنيه مرّة أخرى. لا توجد طريقة أفضل. سأنتظر فقط أن يمرّ أمامي ويسألني في اليوم التالي. قدرنا الانتظار دائمًا، من الحبّ حتى المطر والريح والبدر.

ثم.. هل يحبّ الناس المستشفيات؟ سيقول عنّي

مجنونة، ولن يعيد عليّ السؤال.

اسألني يا زكريّا الآن. هيّا، اسألني، وسأقول لك ما الذي سحرني في هذه المدينة في أوّل أيّامي وإلى الأبد. في الحقيقة أنا لا أعرف، سأبتسم لك فقط. هذه إجابتي. سترى ماذا ستفعل بك ابتسامتي، ولن تكون بحاجة إلى الكثير من الكلمات بعدها.

هذا ليس قدري لوحدي.

في قريتي منذ الأبد، كما هي الكلمة المفضّلة لأمّي «أبد الآبدين»، يمرّ الرجل أمام المرأة التي تحبّه لسنين طويلة ولا تجرؤ على محادثته، ولا تساعده على اكتشاف هواها. حتى إنها لتعد السنين على ملامحه حتى يسقط كلّيًّا في الشيب. هو يمرّ، وهي تنتظر. لكن ماذا تنتظر؟ تنتظر أن يُلقى بنور في قلبه فيأتيها؟ من سيلقي بالنور، ولماذا؟ كم مرّة سمعتُ امرأة تقول إنّها ابتهلت في صلاتها وصامت حتى جاءها الرجل الذي كانت تحبّه. قادته إلى خبائها من دون أن تفصح عن هواها. من قاده إليها؟ كيف اشتمّ رائحة الحبّ وهو يعبر ولا يلتفت؟ تخيّلت نفسي أجلس على الكرسيّ نفسه، بينما يمرّ زكريّا أمامي لعشرات السنين حتى يكتسي رأسه بالبياض وينحني ظهره.

يعبر ولا يلتفت. وبين الحين والآخر يلقي عليّ بسؤال عابر:

«هل أعجبك مستشفانا؟».

وأنا أبتسم، وتنهار كلماتي.

غرقت في أسئلتي. غرقت حتى طفت جدائلي على الماء. أحسست باختناق. تركتُ نفسي أغرق، أغرق في داخلي وانتظرت زكريّا. سينتشلني. لا بدّ أن يفعل. البارحة قال لنفسه إنّه لن يتركني أموت. وإن كان لم يبدِ أسبابه الحقيقيّة، لكنّه لن يتركك يا إيمان!

نقر حسن على كتفي وأيقظني من شتاتي. «إيمان، ينادون على اسمِك». أمسك بكفّي اليمنى ورافقني ببطء حتى غرفة الكشف وعاد إلى مكانه. كانت الطبيبة في انتظاري وبصحبتها طبيب آخر. أعادا الفحص ذاته بالطريقة

نفسها كالبارحة. لم يكن زكريّا هناك. قال لي الطبيب الآخر، لا أتذكّر اسمه، بعد أن فحصتني الطبيبة وهو إلى جوارها:

ــ هناك اقتراح أن نجري عليك فحوصات أخرى بالأشعّة، لكن ذلك سيكلّفك الكثير من المال، وأنت بحاجة إلى المال لأنّ طريقك طويل.

لم أستطع أن أتفوّه بكلمة واحدة. ما الذي أصابني في صنعاء؟ لم تكُن دهشة وحسب، كان عجزًا كلّيًّا. كما لو كنتُ امرأة مسحوقة لم تعد تقوى على مواجهة شيء، ولا على السير في المدينة. ليس بسبب المرض، قلتُ لنفسي. مرّ طابور من صديقاتي أمامي في طرفة عين. لن تستطيع فتاة واحدة منهنّ أن تفهم شيئًا هنا، أو تنبس بكلمة لو وُضعت في مكاني. كان الجبلُ كوكبًا آخر، نائيًا ووحيدًا. تدخّلت الطبيبة:

ــ «سأشرح لإيمان كلّ شيء، إنّها شديدة الخجل، لم يستطع الدكتور زكريّا بالأمس أن يستخرج منها كلمة واحدة».

كانت تحدّثه وهي تنظر إلى عينيّ وتبتسم. لم ير بطني عاريًا، أنا متأكّدة. لو جاء زكريّا الآن وسألني عن صحّتي، سأخبره أنّ زميله لم يلمس جسدي. ستسري السعادة في جسده كما يجري الماء في الأرض اليابسة. ارتعشت شفتاي فجأة:

«أو كما يجري الماء على الصخر».

بعد خروج الطبيب قالت زميلته إنّه من الأفضل أن أجري العمليّة مباشرة من دون الحاجة لمزيد من الفحوصات. بدأت الكلمات تتجمّع على شفتيّ ولساني. سألتها «هل العمليّة خطيرة؟» أجابت: «الوضع يعتمد كلّيًّا على طبيعة الورم».

انسجمتُ مع كلامها، واستسلمت للقرار.

قال لي حسن مساء ذلك اليوم:

ــ «لا تخافي يا إيمان. أنت قويّة، والله يحبّك».

ابتسمتُ وقفزت دمعتان ساخنتان من عينيّ.

أردت أن أعاتبه:

ـــ «ولكن، إذا كنت تحبّني بالفعل، لماذا لم ترسل زكريّا مرّة أخرى؟».

لكنّي استحيت. استحيت من حسن!

إيمان

١٤ / مارس

إيماااااااااااااااااااااااااان، هل كنتِ تبحثين عن المدرّس والطبيب في ملامحي؟ المدرّس الذي كتبتِ له القصائد، فغادر القرية، والطبيب الذي.. الطبيب يا إيمان! هل استنتجت أنّي لستُ واحدًا منهما، ولا حاصل جمعهما، لذلك غادرتِ في المرّة الأولى؟

كنتُ إذن صوتًا في أعماقك، صوتًا بلا ملامح، يمكن أن يكون أيّ صوت. لو صعدتِ على جبل في الفجر، استجمعتِ كلّ يقينك وأشواقك، لو هبطتِ إلى الوادي في العتمة تحملين كلّ قلقك وتراتيلك.. لو...

ثم تنفّست بعمق، بعمق، بعمق، بعمق.. هيّا، بعمق، بعمق:

سأطلع من كلّ آلامك، سأخرج من جروحك. أنا بملامحي، لا في عباءة شخص آخر. ما إن تشتمّي رائحتي في دمك، وتسمعين جرياني إلاّ وستنبت هناك، هناك في الجبل، وردة على قبر أبيك.

عودي مرّة أخرى، يا إيمان، إلى الكلمات الأولى. عندما قلتُ لك يا شمس الله. اعبري أزقّة القرية حافية. تحسّسي ملامحي، ملامحي أنا. احملي نعليك تحت إبطيك كما فعل بِشْر الحافي، الصوفي الأكبر، واسلكي الدروب الضيّقة في الوادي والقرية. اهبطي إلى الطفولة من جديد. اعبري الأزقّة وافتحي قلبك. أغمضي عينيك وافتحي بصيرتك. عودي إليها الآن، أو غدًا.

كان بِشْر الحافي تائهًا. مرّ في زقاق فرأى ورقة. قلَبها فرأى عليها اسم الله. ذهب بشر إلى العطار واشترى صمغًا، أو ما يشبه الصمغ، ورفع الورقة على حائط كبير، لا يصل إليها أحد. حتى تلك الساعة كان ضالاًّ. اكتشف الله، اكتشف معشوقه، فخلع نعليه.

«لا ينبغي أن يبحث الإنسان عن أسراره وهو يلبس النعال» فكّر بِشْر الحافي. طرق بابًا فقالت جارية: من بالباب؟

قال: بشرٌ الحافي.

صمتت الجارية لحظات ثم قالت لأخرى إلى جوارها:

لو اشترى نعلاً بدرهمين لذهب عنه الاسم.

لكنّه كان يبحث عن السرّ، عن السرّ حافيًا. كان اسمُه الحافي نورًا في طريقه. ظنّ أنّ نعليه سيقودانه إلى طريق آخر، غير طريق المعشوق. لطالما صدّقتُ بِشْر الحافي، واعتقدتُ أنّ المرء لا يصل إلاّ حافيًا. عندما قلتُ لكِ لأوّل مرّة قبل زمن «اشتقت إليكِ يا زينب».. كان اسمُك زينب، ولم أكن قد اختبرتُ ذلك الشوق من قبل. عند ذلك انهارت كلّ تحصيناتك، وقلتِ كلّ الكلمات فجأة ودفعة واحدة.

قلتِ لي إنّي وطنك، وقلتُ لك أنتِ حدودي.

قلتِ لي «لكن اتركني بلا حدود».

فضحكت، ضحكت في غمرة الحبّ.

حقّمتني بالعشق، وغمرتِني بنور قديم. ظننتُ لوهلة أنّه من نور النبي إسماعيل، المهاجر. مع الأيّام كان نورك صافيًا، نقيًّا. لم يكن سوى نورك أنتِ.

عندما تحسّست نفسي في ظلام تلك الليلة وجدتُني حافيًا. فأدركت السرّ.

لا أقول لك اهبطي إلى الطفولة لتجدي اسمي في القرية مكتوبًا على صخرة، ولا ورقة. بل أغمضي عينيك، تنفّسي بعمق، دعي جدائلك تسيل مثل أرواح الشهداء.. ثم اعبري الأزقّة، ابحثي عن السرّ. على حجر بالقرب من دارك أجلس، كالعزّي. لا تشتري لي نعلين. اتركي شعرة من خصلاتك، عليها أثر من ضحكتك ومن ألمك. سأعرف الطريق إليكِ. خذي نعليّ، أيّتها الطفلة، وعودي إلى خبائك. دعيني حافيًا، أبحث عنكِ ولا أجدكِ. أكتب اسمكِ في الوادي على قطع من الصلصال، أرفعها إلى الأعلى، الأعلى، الأعلى حتى الشمس. سأترك صلصالين في الوادي: اسمك، وقطعة عليها أثر قدميّ العاريتين. سيهتدي بهما المسافرون، ويتفاءل بهما الرعاة.

ها أنا أحدّثك كالمجذوب، وكالعزّي.

هل أكسر الحكاية، وأشتّتها بهذا الكلام؟ دعيني أكمل الجزء المتبقّي من قصّتك مع المستشفى:

أنتِ الآن في المستشفى. ستتعرّفين على صديقتك زينب، الممرّضة في قسم الجراحة، بعد قليل. ستجرين عمليّة جراحيّة كبيرة، وسيفقد شقيقك حسن إحساسه بالزمان والمكان والناس. سيدخل في طور هو خليط من الشرود الهستيري والتسامي. ها أنا أراه يقف في شارع تعز، جنوب العاصمة، يصافح المارّة. يبتسم في وجوههم: أنا شقيق إيمان. إيمان شقيقتي. ثم يعبر الشارع على قدميه حافيًا حتى آخره. يجلس في الطرف البعيد للشارع، بالقرب من باب اليمن، إلى جوار إسكافيّ وشحّاذتين. حدّثهم عن القرية وإيمان والحرب.

هذه المرّة سيلقي بجريدة «أخبار اليوم» جانبًا بعد أن قال له الإسكافيّ:

«أنت رجل طيّب القلب، أمّا نحن في صنعاء فلم نعد نصدّق الجرائد، لم نعد نصدّق سوى الغرباء. احكِ لي أسرارك أيّها الغريب».

جلس حسن يحدّثه حتى سقطت الشمس خلف الجبل. ثم عاد إليكِ مرّة أخرى على قدميه حافيًا.

سيعود إليكِ في المساء، أو في الليل. يدخل إلى غرفتك في الدور الثالث، قسم الجراحة، أشعث الرأس، غارقًا في الغبار والتعب، حافيًا وخيوط يابسة من الدم على قدميه، لكنّه مبتهج ومبتسم كأنّه خرج للتوّ من حمّام بخار. يطرق الباب بأدب، بصحبة ممرّضة كانت تنظر إلى قدميه طيلة الوقت وهي ترافقه إلى غرفتك. يجلس على حافّة سريرك، بالقرب من رأسك. تخرج الممرّضة فيقبّل جبينك ويضع كيس العصائر والفاكهة على الكومودينة. صوتك متعب. جفناك يرتجفان، وعيناك غارقتان في سهول بعيدة، سهول من الغناء والألم، من الخلاص والفناء.

«سأل الدكتور وضّاح عنك أكثر من خمس مرّات. قال إنّ لديه بعض المعلومات المهمّة حول.. حول مرضي».

كنتِ تبالغين، بالطبع. فالدكتور وضّاح لم يسأل عنه سوى مرّتين.

استغرقتِ من الوقت زمنًا طويلاً حتى تكملي هذه

الجملة القصيرة. كم أنت متعبة، متعبة ووحيدة يا إيمان. وكم هي صنعاء، التي تتّسع لكلّ الناس، ضيّقة عنك. يستغرب حسن سؤالك، فهو لا يزال يعتقد أنّكِ خرجت للتوّ من غرفة العمليّات، وليس في الساعة الحادية عشرة ظهرًا.

لا ينظر إلى ساعته، ساعته التي اشتراها أبوك من مدينة صعدة قبل ثلاثة أعوام بمناسبة عودته سليمًا من الحرب. أهداها حسن إلى شحّاذة في الطريق، قالت له «الله يخلّي لك إيمان».

فقد الزمان، والمكان، والذات. وحدها إيمان كانت كلّ حدوده. لم يكن شرودًا أسطوريًّا وحسب، ولا تساميًا. لقد عاش لحظات من استرداد الأمن الكامل. استعاد كلّ أمنه دفعة واحدة. ألا يبدو ذلك غريبًا يا إيمان؟ يحدّق في عينيك برفق. يسألك:

ـــ وضّاح؟ وأين الدكتور زكريّا؟

ترتبكين أنتِ. ترتبكين، كأنّه اطّلع على سرّك، أو وافق عليه. لا تجيبين لئلاّ يتسرّب السرّ في الجواب، أيًّا كان الجواب. ترك عينيك الوجلتين، واسترق نظرة إلى بطنك. أنت متأكّدة أنّه لم يفعل ذلك قطّ. لم ينظر إلى بطنك وهو يكبر، فهو لم يخالجه أيّ شكّ في نقائك. كما أنّه الشخص الأوحد الذي لا يصدر عنه ما يقلقك أو يوقظ آلامك. كلّ ذلك الجبل الكبير الجاثم على بطنك اختفى. ضغط على يديك: الحمد الله على سلامتك.

«كيف نطمئن أمّي؟ لا توجد تلفونات في القرية ولا بالقرب منها»؟ قلتِ له.

«دعينا ننتظر. أو سأبلغ السيّد شقيق الشيخ بالنتيجة. قال إنّه سيعود بعد العمليّة مباشرة فليس لديه ما يفعله في صنعاء»، ردّ حسن على سؤالك.

«أشعر بانقباض في صدري. لا أدري لماذا! لا أظنّ أنّه سيرتاح لهذا الخبر؟» قلت لحسن.

«لماذا يا إيمان. ما الأمر؟ هل تخبّئين عنّي شيئًا» سألكِ وهو يقرّب حاجبيه من بعضهما.

«لا، أبدًا، والله! هو من يخبّئ شيئًا، لا أنا».

رددِت على حسن، وأنت بالكاد تستطيعين التنفّس. لاحظَ تعبك، قبّل جبينك من جديد. كان الوقت قد تأخّر. لم يكن مسموحًا لأحد بزيارة مريض في تلك الساعة من الليل. لكن حسن كان استثناء، فقد شاغب الحراس، ثم الممرّضين. وعندما عرفوا أنّه شقيقك، وأنّك وحيدة، سمحوا له بالدخول.

«الدكتور وضّاح بحث عنه طيلة الوقت. كذلك الدكتور زكريّا»، قالت الممرّضة الرئيسيّة لقسم الجراحة وهي تردّ على تلفون الحارس.

هل هذا هو ما حدث بالضبط يا إيمان؟

غادر حسن الغرفة. كان سعيدًا، سعيدًا جدًّا.

وحافيًا.

م. غ

عزيزي الكاتب،

لا أدري ما إذا كانت طريقتي في السرد تدهشك كما تفعل أنت معي. أنا حائرة. الجزء الذي رويتَه في رسالتك الأخيرة عن ما أسميته المزيج من التسامي والشرود الهستيري الذي أصاب حسن بعد خروجي من غرفة العمليّات هو جزء مثير في الرواية. أظنّ أنّه قد يسلب لبّ القارئ. في الرسائل الأولى، إذا كنت لا تزال تتذكّر كيف بدأنا معًا كتابة هذه الرواية، قلتُ لك إنّ حسن كان يقبّل الورم كأنّه مسافر. قلتُ لك إنّي لا أجرؤ على تذكّر ذلك الموقف. إذ سرعان ما أغرق في دموع ليس لها قرار. دعنا نتّفق على ترك الجزء الذي كتبته أنت عن تلك الساعات دون تعديل.

لدى زينب، كما قلت لك في البداية، ألف طريقة لرواية ذلك اليوم. لكن من هي زينب؟ أنت لم تسألني بعد عن زينب التي حدّثتك عنها في الرسائل الأولى.

في اليوم الثالث من العمليّة كانت زينب قد أصبحت صديقتي.

زينب ممرّضة في قسم الجراحة كانت تبلغ من العمر ٢٢ عامًا، أي تكبرني بثلاثة أعوام. ملامحها مزيج غريب من الطيبة والقلق والجموح، وكذلك حياتها. قالت لي في اليوم التالي للعمليّة بعد أن فحصت الجرح:

ـــ الحمد الله، كلّ شيء على ما يُرام يا إيمان.

توقّفتُ عند اسم إيمان. ابتسمت بطريقة فتحت كلّ نوافذ الدنيا في داخلي. أمّا أنا فبمجرّد سماعي لجملتها انزلقتُ فجأة إلى القيعان. تخيّلتُ أبي يقف خلف شبّاك مجلسه، ونحن إلى الخلف منه. نسمع معًا أصوات انفجارات خلف الجبال البعيدة فيردّد أبي جملته الأثيرة:

«كلّ شيء سيكون على ما يُرام». لكنّ الأشياء كانت تسوء مع الأيّام. حتى أبي نفسه أصبح اسمًا وحكايات صغيرة بلا حصر. ولم يكن قطّ كلّ شيء على ما يُرام.

حتى الليلة التي سبقت ابتسامة زينب كانت صنعاء بلا شبابيك ولا أبواب. مجرّد ضجيج ليس بمقدورك أن تعثر

بداخله على شيء تعود به إلى البيت. هكذا يفكّر الغريب. كنتَ دقيقًا وأنت تقول إنّ حسن في قمّة شروده جلس إلى إسكافيّ وشحّاذتين على ناصية شارع في صنعاء. أظنّك تقصد أنّه عثر على أصدقائه خارج صنعاء. أولئك المشرّدون والتائهون الذين يمرّون في شوارع العاصمة هم في الحقيقة يدورون خارجها.

لو سمحتْ الرواية فسوف أحدّثك فيما بعد عن الأسوار غير المرئيّة التي تفصل البشر في صنعاء. عن عشرات المجتمعات والطبقات المتراصّة. عن الفقر الذي يتدفّق من الأسفل حتى الأعلى، ما إن يجتاز الفقر طبقة ما حتى يتحوّل إلى ثراء في الطبقة التي تليها في الترتيب الرأسي الذي يطبع صنعاء. الطبقة الصغيرة التي تعيش في قمّة هذا الجبل تستحوذ على النصيب الأكبر. وهي التي تجعل من كلّ ذلك الفقر غنيمة.

سألتُ السيّدة العجوز ذات مرّة: ما الذي جعل صنعاء هكذا بلا رحمة؟ فقالت إنّ الله يوزّع الأرزاق كما يشاء. انفعلتُ بعض الشيء. احتفظت بهدوئي ووقاري لتلك السيّدة التي أحبّها كثيرًا. قلت لها «لا أسألك كيف يوزّع الله الأرزاق. أنا أعني لماذا لا يوزّع الإنسان تلك الأرزاق مرّة أخرى». صمتتْ قليلاً..

«يوم القيامة يوم الميزان»، قالت بشرود.

بهذه الطريقة يتعايش المحرومون مع الظلم. فالخالق وزّع الرزق بمشيئته التي لا يجوز الاعتراض عليها. أمّا الذين حصلوا على نصيب وافر من تلك القسمة الإلهيّة فلا يجرؤ أحدٌ على مساءلتهم سوى الخالق وحسب. الخالق، في ذلك اليوم، سيغفر لهم أيضًا. فهم قد شهدوا له بالقدرة والسلطان، الأمر الذي أدخل السرور إلى قلبه، وحصّنهم من بأسه. أردت أن أصعد إلى أعلى قمّة في صنعاء وأصرخ:

«أيّها الكبراء، أنتم تعتقدون أنّكم نصّبتم الخالق شيخ مشائخ العاصمة، فتواطأ معكم. تظنّون أنّكم اعترفتم له بالقدرة مقابل أن يطلقكم لتنهشوا أجسادنا كما يحلو لكم. كأنّه كان وجلاً وفقيرًا إلى اعترافكم فأنقذتموه.

ليس ذاك هو الربّ الذي خلقكم، بل الذي خلقتموه أنتم. تأكّدوا أنّ ذلك الربّ ليس هو الذي سيكون يوم القيامة في انتظاركم».

قالت السيّدة عندما حاولت أن أحاججها:

«العبد مثل الأجير، يبني السفينة ويأخذ أجرته ثم يعود إلى بيته. لا شأن له بوجهة السفينة ولا بطريقها».

ـــ لكنّ الناس أحرار لا عبيد يا جدّة.

ـــ كلّنا عبيدُ الله. الفقراء والأغنياء كلّهم عبيد الله. والمال مال الله يمنعه ويعطيه.

ـــ الله لا يوزّع مالاً حرامًا يا جدّة.

استسلمتْ بهدوء لمحاججتي. بل بفرح. رأيت ابتسامة على وجهها. اعتذرتُ لها عن وقاحتي فهزّت رأسها بإشارة تقول «لا، ليست وقاحة». كأنّي فتحتُ أمامها فرصة لتقول رأيًا كانت تكتمه، أو ربّما مع الأيّام لم تعُد تهتمّ لشيء.

ـــ يقول الإمام علي «ما زاد مال غنيّ إلاّ بما نقص من مال فقير».

تداعت الجدّة مع فكرتي.

ـــ (وأنا أشعر بأنّي اقتربتُ من النقطة المهمّة التي لا أجرؤ على طرحها أمامها) حسنًا يا جدّة، ولكن هل يعلم أبناء الإمام علي أنّه قال هذه القاعدة؟

ـــ بعضهم يا ابنتي. وبعضهم سرقتهم الدنيا.

ثم قصّت لي بعض حكايات شبابها، وكيف أنّها قالت لبعض أقاربها قبل زمن إنّ ما يفعلونه سيسوّد وجه الإمام يوم القيامة. تحمّستُ للحديث، ثم انزلقت مرّة أخرى إلى الطفولة وسنوات شبابها الأولى.

استمرّت في تداعيها لأوّل مرّة:

«صرعتهم تلك الكلمة. رأيت الرهبة في وجوههم. وعندما حدّثت عرفات عن ذلك الموقف كان فرحًا ومنتشيًا. قال إنّ كلماته بدت تؤتي أكلها. قلت له: آخ لو يعرفون من أين آتي بتلك الأفكار. وضحكنا. ضحكنا. كأنّه أمس».

انعصر قلبي عند كلمة أمس، اعتُصر مرّة واحدة. قمت إليها. جثوت أمامها. أمسكت بكفّيها وفي عينيّ سحابتا دمع خفيف. حاولت أن أقول كلمة ما، أيّ كلمة. فشلت. وضعت السيّدة كفّها على رأسي. لاعبت خصلاتي بحنان، فوضعت خدّي على ركبتها اليسرى.

«مضى الكثير يا ابنتي. بقي القليل»، قالت السيّدة.

لم يكن صعبًا أن تسمع تلك الحشرجة الرحيمة في صوتها. هذه المرّة مختلطة بكلّ ما تركته الأيّام من قسوة وغرابة وتيه.

لكن ما الذي كانت تنتظره؟ بقي القليل؟ لا أكاد أصدّق ما سمعته، قلتُ لنفسي. تقف في السبعين من عمرها تنظر لما مرّ من عمرها. سبعة عقود، ثم تشعر بالنشوة. هل كانت تتحسّس شيخوختها فتشعر بالزهو «لقد انتظرت طويلاً، وها أنا أقتربُ من اليوم الموعود»؟ تشعر بسعادة عميقة لأنّها أنجزت كلّ ذلك الانتظار، فقد أصبحت على بعد خطوات من انتهاء القليل الباقي، العمر. سعيدة لأنّها بعد قليل ستجد الذي انتظرته. تنتظر موتها بإيمان ونشوة كأنّها ذاهبة إلى حفلة زفافها. هل كانت تقصد عرفات؟ أظنّها كانت تقصده. هل يكون هذا السبب كافيًا لأن تنأى عن الخطيئة وتطهّر نفسها بالفضائل عشرات السنين لئلاّ يعاقبها الخالق بحرمانها من الذي انتظرته؟ هل يمنح الحبّ المرأة كلّ ذلك الإيمان وكلّ هذه الطهارة الفاتنة؟

قلتُ للممرّضة زينب، بعد أن عاينت الجرح وقالت لي إنّ كلّ شيء على ما يُرام:

ــ الحمد الله. في الحقيقة اسمي ليس إيمان، اسمي زينب.

فتحت عينيها بدهشة:

ــ أنا اسمي زينب، لكن أنت إيمان.

وضعت كفّها على جبيني وخدّي. قلت لها «أنا لا أمزح، ولست مصابة بالحمّى». سحبت يدها وهي تبتسِم.

ـــ يبدو أنّ قصّتك لا نهاية لها يا إيمان، قالت زينب.

قلت لها بحركة رأسي: بالفعل.

نظرت لساعتها، ثم إلى المريضة الموجودة على السرير المجاور.

«سأعود إليك خلال اليوم. سأزورك من وقت لآخر».

اقتربت من أذني بلطف. «أريد أن أسمع قصّتك كلّها»، همست زينب.

أغمضت عينيّ وفتحتهما. أردت أن أقول لها:

«سأكون سعيدة بلا حدود»، لكنّي لم أقل شيئًا.. فقد كنت بالفعل كذلك.

لم يمضِ وقت طويل حتى جاء حسن. اشترى بعض العصائر والمناديل والأدوية. يا للغرابة، اشترى الأشياء نفسها التي أحضرها البارحة. حدّثني عن اللوكنده التي نام فيها. كان مستفزًّا. فحدّثته عن زينب. قال إنّ اللوكنده كانت مليئة بالدخان ونزلاء مثيرين للريبة. قلتُ له إنّ زينب أضاءت الغرفة وشوارع صنعاء. قال إنّ صنعاء بعثت فيه الرهبة، وأنّها ليست المدينة التي سيقع في حبّها. قلتُ له إنّ زينب غمرتني بالسكينة، وإنّها هي صنعاء بالنسبة لي. قال إنّ سكّان اللوكنده هم وجه صنعاء الحقيقي، صنعاء التي تخرج منها الطائرات. قلتُ له إنّ زينب هي النغمة التي ستنشر الحبّ في صنعاء، وستوقف الطائرات في الجوّ وقطّاع الطرق في الجبل.. تحدّثنا طويلاً عن زينب واللوكنده، حتى غمره الشغف لزينب وسكنتني الرهبة من صنعاء.

صمتنا قليلاً.

انصرف حسن إلى الجريدة التي جلبها. لمحتها، الجريدة ذاتها التي قبل ذلك. الكلمات ذاتها الكبيرة التي لا عقل لها ولا ضمير.

«لماذا تشتريها يا حسن»، سألته.

ردّ عليّ بصوت خفيض «أريد أن أعرف كيف يفكّر هؤلاء الأعداء الحمقى».

هزّتني كلمة الأعداء. قلتُ له: «لا يوجد أعداء في هذه المدينة يا حسن».

قلّب بصره في الغرفة كأنّه ذئب في واد. قال:

«إذا كنتِ تقصدين الدكتور زكريّا والممرّضة زينب فهؤلاء ليسوا من صنعاء. هؤلاء غرباء مثلنا».

كان مسكونًا بالتوجّس والذعر من صنعاء. سألته:

«خبّرني، أين تخبّئ الفلوس؟».

حرّك جسمه بطريقة مضحكة كأنّه يقول «لا أحد يقدر عليك يا حسن». أشار إلى لباسه الداخلي. خاطت له أمّي جيوبًا كبيرة في ملابسه الداخليّة.

ـــ لا تزال خائفًا من صنعاء يا حسن؟

ـــ لم ترسل لنا أبدًا الأمان.

كان يقول جملته وأنا أتّجه ببصري إلى الباب حيث تقف زينب. ارتبك حسن، أصلح هندامه واستأذنني بالانصراف.

«في رعاية الله» قلتُ له.

لم يردّ على دعائي، كان مرتبكًا وخجولاً. كان أيضًا محنيّ الظهر قليلاً على غير عادته. انحناء بسيط يعرفه المرء في ملامح الخائفين والسجناء.

قالت لي السيّدة في إحدى الليالي:

«كلّ آثم بين كتفيه قتبة وبين عينيه دُلجة».

كانت تحدّثني عن الخطيئة التي تترك أثرًا في هيئة الإنسان ومنظره. أدهشتني الفكرة والملاحظة. كانت أقرب إلى المنطق. سألتها «أصحيح ذلك أم من قبيل التشبيه». قالت لي إنّ رجلاً صالحًا كان بين تلاميذه فدخل عليهم رجل يعرفونه. فقال الرجل الصالح «إنّ أحدكم ليدخل علينا والخطيئة في عينيه» فارتبك القادم وقال: أَوَحْيٌ بعد الرسول؟

لكنّ الشيخ لم يجبه وانصرف عنه إلى تلاميذه.

قالت السيّدة:

«لا بدّ وأن تترك الخطيئة على الإنسان إشارات ودلائل يراها من لا يزال يحتفظ بسرّ الله في قلبه. وهؤلاء قليلون. الأغلب أصابوا من الذنوب ما طمس بصيرتهم».

تحسّست مسبحتها. تمتمت ببعض الكلمات. عادت إلى فكرتها:

«لقد تحوّلت قلوبهم إلى مرآة ملطّخة بالبقع السوداء، لذلك لم يعودوا قادرين على رؤية تلك الإشارات».

صمتت برهة. سمعتها تهمهم «كلاّ، بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون».

لم أر تلك القتبة بين كتفيْ حسن إلاّ تلك اللحظة. كم كان خائفًا ووحيدًا. لم تكن القتبة التي رأيتها للتوّ بسبب الآثام،

بل بسبب الخوف والأعداء.

إيمان

١٨ / مارس

ملحوظة:

الكثير من صديقاتي ومن جيراننا يحيون هذا اليوم كأنّه مأتم كبير. ففي هذا اليوم سقط عشرات الشهداء، في جمعة الكرامة. السيّدة صائمة، تصلّي لأجل أن يمنح الله أهالي الشهداء السكينة وأرواحهم الأمن. أنا أيضًا صائمة، لأجلي. لأجل عبير، وأمّي. لأجل أن يمنحنا الله الشكيمة والصبر، وأن يغمر بالرحمة والنور روح شقيقي حسن. لم يكن قطّ حاملاً للخطيئة، وعندما سقط كان شجاعًا كما وصفه أبي. خان وصيّة أبي وتركنا بلا سند. كانت تلك خطيئته التي نغفرها له كلّ يوم.

في ليالي صنعاء الجافّة، عندما يخلو هواؤها من الرطوبة والماء.. عندما يبلغ جفاف صنعاء مداه، وتنام كلّ الأصوات إلاّ كلب الحيّ.. أصعد إلى السطح. أنتظر النجوم. في الساعات تلك يصبح الكون أكثر بهاء وشفافيّة، فيتدفّق فيه كلّ شيء. تتدفّق من ليل السماء الأسرار بغزارة. أنتظر الموجات القادمة من فجر الزمان، والضوء القديم الغابر. أستمع إلى الله فأجده، وإلى حسن فيلفحني نوره. يكون قلبي مثل مرآة شديدة الجلو، ويكون بيني وبين الله خطوة.

لو خلعتُ نعلي، كما قلتَ لي، لوصلت.

أمّا حسن فيسافر مع الضوء القديم. هذه الليلة سيكون أقرب من كلّ وقت. سألتقط نوره. سيقول لي بحنانه الفيّاض:

«لا تخلعي نعليك يا إيمان، ليس بعد».

عزيزتي إيمان،

على مدى شهرين وأنا أستمع إلى حكايتك. منذ الرسالة الأولى رأيت قبر شقيقك حسن. كنتُ أعلم أنّه لن يعيش معنا حتى آخر الرواية، وأنّه لم يعُد يزورك. كانت كلماتك، كلّ كلماتك، تشيّعه في كلّ رسالة. في بعض المقاطع التي كنت أقرأها رأيت موّالاً صوفيًّا على رابية، حول ضريح مطرّز بالنور. لو أردت أن أعزّيك كما يفعل الآخرون، سأقول لك:

«لم يخلق حسن لأجل زماننا».

هذه الجملة مبتذلة، لم تردَّ غائبًا قطّ. أرجوكِ لا تخبريني كيف غاب، ولا أين سقط ذلك العارف الصغير. لا تخبريني أين خانته شجاعته، ولا ضدّ من. يكفي أن يعلم من سيقرأ سيرته أنّه خاض حروبًا ولم يقتل أحدًا. إنّ رفاقه كانوا يتحدّثون، في وسط المعركة، عن النصر والهزيمة وعن الكمائن والأعداء، وكان يتحدّث عن اشتياقه لدمعة أمّه وخبز شقيقته. إنّ رفاق السلاح الصغار كانوا يتواعدون «في المرّة القادمة سنقتل منهم أكثر» وكان يقول لهم:

«بعد الحرب سأبيع بندقيّتي لأحد الرعاة في الجبل».

لم أر قط صورة لشخص متوفّى إلاّ وسمعتُ في زاوية ما في قلبي صوتًا يقول: رحمه الله. هكذا، على مدى الأيّام، من دون الحاجة لأن يخبرني أحد بمصير ذلك الشخص. تقع عيني على صورة تجمع سبعة أشخاص فأهتدي بغريزة عميقة إلى أوجه الذين غابوا. لطالما اعتقدت أنّ المرء إذا مات وترك صورَه فإنّ ملامحه تبهت مع الزمن. تبهت ببطء عميق وتنشأ ابتسامة على الشفاه. لو ترك المرء صورة صديقه المتوفّى في قبو مظلم ثم عاد إليها بعد زمن سيجد الصورة باهتة، ألوانها ضامرة. وسيكون صديقه على وشك أن يختفي للمرّة الثانية.. لكنّه هذه المرّة مبتسمًا.

حتى الكلمات. ربّما حتى الكلمات تبهت مع الأيّام. الكلمات عن الميّت تخرج مطليّة بنواح ضامر، تمشي خائرة القوى. حتى الكلمات. الكلمات التي يتركها الميت خلف

ظهره، كلماته هو، تتساقط مع الزمن مثل حنطة الشتاء.

أردت أن أكتب لكِ ببساطة طفل:

اشتقت لكِ يا إيمان.

اشتقتُ لكِ يا زينب.

بيد أنّي، وأنا أمسك بكفّكِ في هذه الجنازة الطويلة، شعرت بالخجل.

استحييتُ من حسن.

م. غ

عزيزي الكاتب،

لم أخبرك بكلّ تفاصيل رحلتي من القرية إلى صنعاء. الرحلة التي امتدّت لساعات طويلة. رويتُ لك ما حدث عندما اجتزنا أوّل منحدر. هذه الرواية ليست عن الحرب، ولا عن الثورة. لاحظ أنّي لا أزال أرى حتى الساعة من بلكونة الشقّة بعض الخيام في الشارع. لكنّي أسدلت الستارة على كلّ ذلك. أرجو أن يتفهّم القرّاء هذا الأمر. هذه الرواية عن إيمان.

إيمان التي غادرت المستشفى بعد أسبوع واحد.

قلتُ لحسن: أظنّ أنّنا يمكن أن نعود إلى القرية قريبًا. أريد أن أرى النصر في عينيْ أمّي وأختي.

كان ذلك بعد يوم من خروجي من المستشفى.

ردّ حسن:

ـــ «شقيق الشيخ عاد البارحة إلى القرية. سيخبرهم بالحقيقة. أرسلت معه بعض الأشياء لأمّي. أرى أن لا نتعجّل العودة، الطريق أيضًا غير آمن، قرأت صباحًا في تلك الصحيفة أنّ السيّد قُتِل في الحرب، أو على الأقلّ بترت إحدى ساقيه. إذا كان ذلك صحيحًا فإنّ الطريق سيكون أقلّ أمانًا. أتباعه، أنا أعرفهم، سيبترون ألف ساق انتقامًا لساقه».

كنت مستلقية على سريري وكان حسن يجلس عند قدميّ. عندما نطق جملة «انتقامًا لساقه»، صرف عينيه عنّي وتشاغل بتغطية قدميّ بالملاءة. حرّكتُ رأسي باتّجاه النافذة:

ـــ خبّرني، ماذا اشتريت لأمّي؟

ـــ حاجات.

ـــ حاجات مثل؟

ـــ حاجات يا إيمان، حاجات عاديّة. هل تعتقدين أنّ السيّد قُتل؟ معقول؟

ـــ لم أعد أصدّق شيئًا يا حسن. (صمتٌ لثوان) ستفرح أمّي بالحاجات وستدعو لك.

ـــ (وهو يبتسم) كالعادة ستعتقد أنّكِ صاحبة الفكرة وستدعو لكِ أنت.

ـــ (ابتسمتُ، لم أقل كلمة).

كنتُ سعيدة بشكل عام. العمليّة نجحت، والورم كان حميدًا وربّما لن يؤثّر مستقبلاً على صحّتي. قالت لي الدكتورة إنّ بإمكاني أن أحمل. هزّتني هذه الكلمة، قدحت بداخلي أمومة جائعة وعارية. لكنّني جفلتُ أيضًا.

«لا تقتربوا منّي، أرجوكم، دعوني لوحدي».

كان صوت زاعق في أعماقي ينبعث في تلك اللحظات.

لم يكن سهلاً عليّ أن أفهم جملة ورم حميد أصاب المبيض. فأنا قادمة من خارج التاريخ، حيث لا توجد مبايض ولا أورام. يوجد فقط خيال، الخيال هو الملكة الوحيدة التي نمتلكها هناك في الجبل.

بعد أكثر من أسبوع، قرّر حسن العودة إلى القرية. كانت الأخبار التي يقرأها في الصحف تتحدّث عن انتهاء الحرب. عندما جاء لوداعي، وعدني أن يعود في أقرب وقت، وأنّه لن يغيب عنّي أكثر من شهر. قال له الدكتور زكريّا إنّه من الأفضل أن أبقى في صنعاء بضعة أشهر، وأن أجري بعض المتابعات من وقت لآخر. سألته ما إذا كان الدكتور زكريّا قد قال كلمات أخرى. تجاهل سؤالي، هزّ رأسه فقط. صمت لثوانٍ. كان يفكّر بأمور غير تلك التي تدور في رأسي. لا أستطيع تذكّر ما الذي دار في رأسي تلك الساعة! لكن حسن اقتحم لحظة الصمت:

«انتهت الحرب كما انتهت التي قبلها، وكما ستنتهي الحرب القادمة».

تركته يقول كلامًا كثيرًا عن الجنود والمشرّدين. انصرفتُ عنه كلّيًا. أرهقتني تلك السيرة. لقد سئمنا كلّ ذلك. حتى الجثث والجنازات تشابهت. صار يكفي أن تنوح امرأة في القرية مرّة واحدة ليسقط عنها واجب العزاء لعديد من البيوت.

بعد شهرين زارني حسن. نصحني أن لا أعود إلى القرية. فقد وجد أمّي حزينة ومهزومة. بعد عودة شقيق

الشيخ إلى القرية سرى الخبر كالريح: استخرج الأطبّاء من بطن زينب جنينًا ميتًا.

في تلك الأيّام أُجلي آخر يهود آل سالم. لم يكن آخر يهود آل سالم يهوديًّا، بل المدرّس عبد الحافظ. قال حسن إنّ سيّارته ظلّت تهوي في الوادي والمنحدرات ساعات طويلة بسبب خطاياه. كان حسن يروي فقط، يروي ولم يعُد يؤمن بشيء. ربّما لم ينتبه، فهو شقيقي، إلى معنى ما كان يرويه. فمن المؤكّد أنّهم كانوا يعنون بخطيئة المدرّس عبد الحافظ «الجنين الميّت».

حدّثتك كثيرًا عنّي، وعن حسن. عن القرية والجبل.

وحدّثتك عنّي وعنك.

على طول الرواية كنتُ أتحرّك ببطني الكبير إلى صنعاء وكنتَ أنت تغمرني بالكلمات، وبأشواقك. لم أجرؤ على مقاطعتك، أردتك أن تتدفّق إلى ودياني كما تفعل الريح في الخريف. لا تزال أشواقك دافئة وغزيرة كما كانت. أتتذكّر عندما مسّني هواك دفعة واحدة؟ كان ذلك قبل عام.

قلتَ لي: تفتّحي يا مدينتي. وكنتُ أقول لك: المدينة لا تفتح أبوابها ليلاً.

سألتني ما إذا كنتُ أعرف وقع خطاك، فأجبتك. هل تتذكّر ماذا قلتُ لك؟

رسالتك الأخيرة هزمتني. قلتُ لك إنّي سأروي قصّتي لأنتصر. رويتها لك، كنت متيقّنة أنّك ستبني لي من كلماتك هودجًا. سأروي، وسأرتوي. فعلتَ ذلك. فعلت ذلك بمهارة. يا لَك!!

غير أنّ رسالتك الأخيرة أعادتني إلى حقيقتي. كأنّك كنتَ تمسح على رأس فتاة يتيمة، لا عاشقة.

أنا لست هاشميّة، واسمي ليس إيمان. أنا زينب التي انهمرت الكلمات من شفتيها عندما رأتك من شرفة أحلامها.

اروِ الحكاية يا مروان. ها أنذا أناديك باسمِك. اروِها

للآخرين. قل لهم إنّ ألبرينغو يشعر الآن بالسعادة، لأنّ قصّته لن تموت.

أمّا أنا فلن أقرأ هذه الرواية. أراها امتلأت بالأظافر والشوك. لم تعد لديّ القدرة لأجلد نفسي من جديد. لذا قمتُ بنسخ رسائلك فقط وطباعتها. قرأتها منفصلة عن رسائلي. كانت قصّة مكتملة. أصدقك القول: لقد كانت موسيقى من الألم اللذيذ.

فعلتَ لأجلي الكثير. لا يمكنك تخيّل ما فعلته كلماتك التي حاصرتني على طول الرواية. سأعود مرّة أخرى إلى زينب. زينب اليتيمة. سأراقبك وأقرأ كلماتك من بعيد. انسَ حسابي هذا على الفيس بوك. سألغيه إلى الأبد، وسأعود باسمٍ آخر لأتابعك.

ستسحبك الدنيا بعيدًا عن جدائلي الطويلة، وستنساني مع الوقت. لن أحزن. سأصبح سرًّا مدفونًا في كلماتك، وروحها الذائبة. إذا قالت لك فتاة غيري إنّ كلماتك لها جدائل طويلة لا تخبرها عن السرّ.

أيًّا كان ما سيحدث لي، فقد عشت. عشت في هذه الرواية. أمّا أنتَ، فسأحبّك حتى الأبد ويوم.

كن بخير لأجلي.

زينب

٢١ / مارس

... مرّت إيمان من هنا، وغابت.

«الصفحة التي طلبتها غير موجودة». تصادفني هذه الرسالة كلّ مساء، عندما أبحث عن اسم إيمان. اختفت صفحتها، وتلاشت هي في ليل صنعاء.

ربّما إلى الأبد.

كنتُ غافيًا تحت جديلتها الطويلة، فأيقظتني. قالت «قم، لديّ قصّة». سألتها «من أنتِ»؟

قالت: هيّا، انهض، لديّ قصّة. اروِ عنّي، كما فعلت مع المجذوب.

جثوت بين يديها، كانت تحضّر لي الحكايات الصغيرة وكنّا نضفرها معًا. كنت أحضّر لها الكلمات، وأسكر بها لوحدي. حدّثتني عن القرية التي جمعت كلّ طفولتها وألقتها من شاهق.

وحدّثتها عن أشواقي.

توسّلتُ إليها:

«لأجل الله، لا تغيبي هذه المرّة يا شمس الله، طلّي عليّ من أعاليك، قلبي صلصال قديم».

تركتْ لي ابتسامة، كعادتها، وقالت:

— «لو أنّ لي شرفة صغيرة على جبينك، أجلس فيها. سأسمّيها قريتي، وسأغنّي حتى يختفي الفجر والريح».

في القرية كان اسمُها زينب. في الدقائق الأخيرة، وهي تعبر الجبل إلى صنعاء، قالت لطفلة اسمها إيمان: أنا أيضًا اسمي إيمان.

ها هي تعيش، لا تزال تعيش في القرية، كما أرادت من خلال عينيّ الطفلة إيمان. وتعيش في صنعاء منشطرة بين إيمان وزينب.

إيماااان،

لا أدري ما إذا كنت ستقرئين هذه الرسالة الأخيرة منّي، أم لا. وأنت تسدلين ستارتك الأخيرة، وأنتِ تغلقين العالم وتصعدين إلى السطح تنتظرين الضوء القديم،

الموجات الشاردة من فجر الزمن.

عندما تنام صنعاء وتنهض كلاب الحيّ:

استمعي لصوتي..

أنا أيضًا، يا إيمان

سأحبّك حتى الأبد ويوم.

م. غ

Essen,

Germany

٢١. ٠٣. ٢٠١٤